



الفن المعماري الجزائري

سلسلة الفن والثقافة



www.j4know.com

الفن المعماري الجزائري

الفن المعماري الجزائري

سلسلة " الفن والثقافة "



بالقرميد من مصنع يبعد بعشرات الكيلومترات فان ذلك لم يكن ممكناً إلا للمحظوظين من الناس من الأسياد أصحاب الجاه أو المجموعات الغنية (المساجد مثلاً) . فهؤلاء كانوا يستطيعون أن يأتوا بالرخام من إيطاليا أو بالزخف من هولاندا بل حتى من بلاد الصين .

إن الانسان المتوسط ، الانسان فقط ، لم يكن يملك إلا اللوازم القريبة منه . ففي البلدان الاسكندنافية كان الناس ولا يزالون يسكنون منازل من الخشب في غالب الأحيان . أما في الجزائر ، في منطقة الأوراس ، فان الناس يسكنون منازل من الحجر ، بينما نجد هذه المنازل مبنية باللبن (الطوب) في الصحراء . هكذا تمكن الانسان الذي تعود استعمال المواد الموجودة حوله من الابداع في بنائه وإنجاحه عبر القرون وفي كل جهة ، ومن الوصول إلى أبسط التعابير ومن ثمة إلى هندسة معمارية خاصة به بلغت منتهى الأناقة .

لم يكن الانسان في تلك العصور الغابرة يحلم بزخرفة واجهات منزله ، ولم يكن يحفل بالتباهي والمفاخرة فيما يتعلق بالبناء . فالزخرفة الوحيدة ، التي كان يفكر فيها هي تلك التي كان يتطلبها الهيكل . وستحدث عن ذلك في باب الحديث عن الهندسية النوعية الجزائرية ، التي هي خير مثال يمكن أن نراه في هذا الميدان .

إن صفاء النية هذا ، الذي يكاد ينسى اليوم في جميع الأنحاء ، أي تركيز المجهود وعدم تبعثره ، قد جعل من منازل الانسان القديمة - أو من المنازل الحديثة التي روعيت فيها نفس الشروط وبنيت بروح قديمة - محل دراسة ربما شغف به الباحث أكثر من شغفه بالمعالم التي خلفها « غزو » المهندسين المعماريين أو المهندسين .

كان الناس يسمون المهندسين المعماريين « أرباب المهنة » وكان على هؤلاء آنذاك أن يشيدوا القصور والهياكل والمساجد أو الكنائس والحصون . فكانوا غالباً ما يقضون حياتهم كاملة في انجاز هذه المشاريع العمرانية عندما تكون حياتهم كافية لانجازها . غير أنه يحدث أحياناً أن يتولى أناس آخرون تلك الأعمال التي أوقفها الموت .

على أن مأوى الانسان بقي على حالته البسيطة . ولم يتميز هذا البيت عن ذلك إلا بالحجم تبعاً لأفراد الأسرة واختلاف الثروة . لقد كان الانسان مهندساً معمارياً لذاته ، فيقوم غالباً ببناء منزله بنفسه . ولم يكن يجهل أنه سيدعي إلى البناء . فكل واحد كان « يعرف » وكل واحد كان يستطيع أن يسير الأعمال البنائية أو ينفذها بنفسه . وذلك أن « المراس » والنظر يوماً إلى كل تلك المنازل المتناسقة التي يكاد يشبه بعضها البعض (كلمة تكاد بالذات هي ضمان جمال ذلك النوع الدقيق) . كان بمثابة تكوين وثقافة طبيعية تقدمها للجميع تلك المنازل التي يخضع بناؤها إلى مبادئ هندسية جد متشابهة .

ولم يكن هناك أيضاً مهندسون معماريون مخصصون للبناء في العصور القديمة ، ومع ذلك لم تخل تلك العصور من بناء . فحاسة النظر والمراس كانا يضبطان طاقة العمود وسمك العارضة ومداهما ، ومثانة الهيكل بالقياس إلى ثقل السقف ومقاومة هذا السقف لتسرب الماء وكثافة الجدران .

إن هذه الخبرة ، والعلوم الشعبية كانت راجعة إلى حد ما إلى أن مواد البناء بطبعها أثقل المواد المنقولة . وإذا كان الناس يأتون اليوم بالخشب من النرويج ، دون صعوبة كبيرة ، أو



قلعة بني راشد ، المكان الذي كان يكتب فيه
الكاتب العظيم ابن خلدون



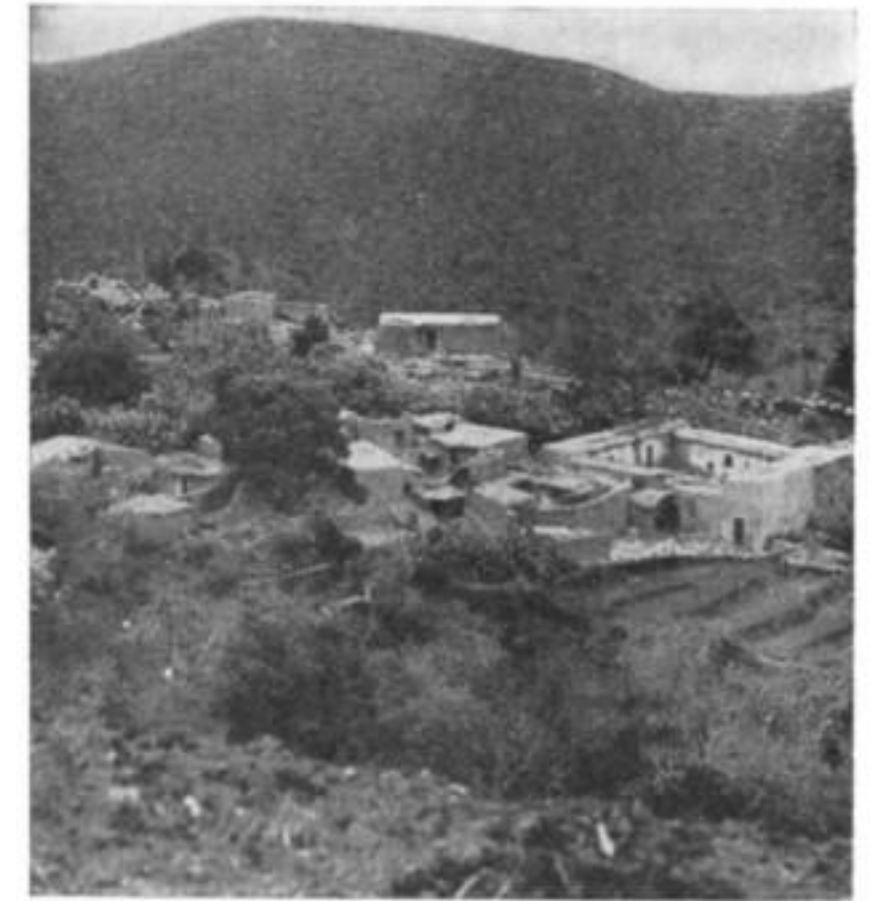
قرى في بلاد القبائل

فالمناخ ، في أول الأمر ، ثم تقاليد الحياة فيما
بعد تتجلى كلها في ترتيب الغرف . كما تتجلى
أيضاً في الواجهات والمنافذ التي تتخللها للتمكين
من الرؤية والدخول وتسلسل الأنوار . ولم يكن
هناك شيء يؤثر في أنماط البناء تأثيراً حاسماً إلا
مواد البناء وحدها ، وما مواد البناء سوى الجغرافيا
وعلم طبقات الأرض للمكان . وبناء على ذلك ،
فإن المناخ مع التقاليد مع الجغرافيا مع روح ويد
الانسان تساوي بيوت . وقد دامت هذه الحالة
في العالم أجمع حتى عهد الآلة .

وعندئذ وقع الانقلاب . فالسكة الحديدية ووسائل النقل بصفة عامة والاسفار وفضول كل واحد من جهة ، وإمكانيات نقل مواد البناء من جهة أخرى ، قد مكنت من إيجاد تلك البدعة الأولى ، ألا وهي « الموضنة » . وقد شوهدت المنازل الخشبية « النرماندية » في البلاد المستعمرة حديثاً أو البيوت الخشبية السويسرية على شاطئ البحر . وإلى جانب ذلك ظهرت مواد البناء الجديدة ، أي مواد البناء « الصناعية » .

لقد كان الناس يستعملون باديء ذي بدء هذه المواد لتقليد ما كانت تعبر عنه مواد البناء في العهد السابق ، فجعلت أوروبا من الفن « الغوطي » ، الذي امتد حتى إلى الجزائر ، نوعاً من الفن « الاسلامي العربي الجديد » وهي لم تدر في الواقع أيهما تختار . والملاحظ أن كلا النمطين قد فقد - مع استعمال الأسمنت المسلح - ذلك الجمال الذي كان يتميز به في عهد الحجر أو الرخام .

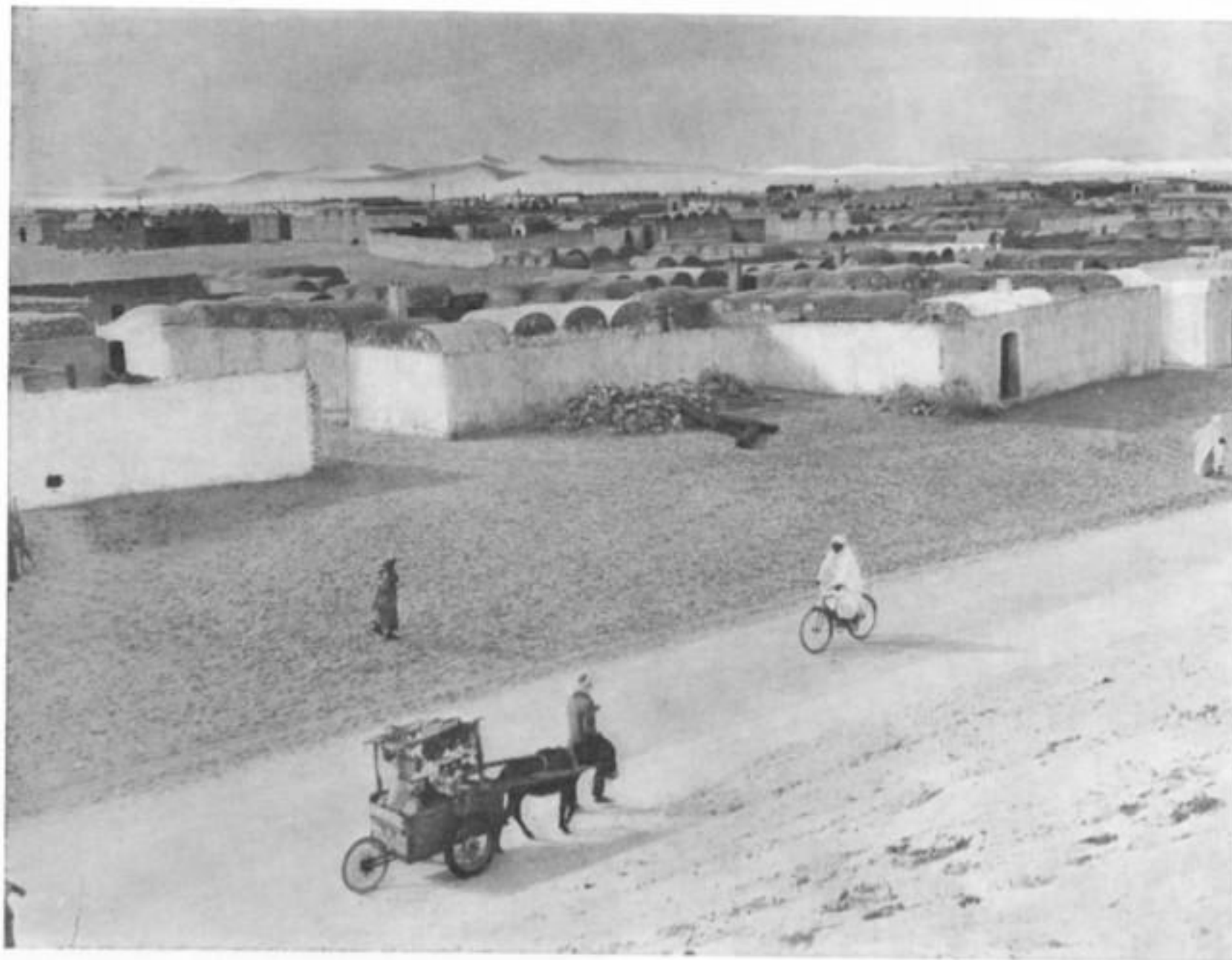
أما داخل البلاد الذي نجا (وكيف لا) من عواقب هذا النمط فإنه استمر شيئاً فشيئاً في تلطيف وتحسين بادرة الأجداد ، بادرة الانسان المهندس المعماري .



حوالي ندرومة (تلمسان)

الدار غلاف لوظائف طبيعية
تتصدى للرياح بظورها
قرية في سوف

قصر القليعة القديم كان موقعاً حصيناً
وعند قدميه تبدو القرى الجديدة بسيطة مثله وأصيلة



مزرعة ، ساحة ، إنها نواة قرية
ديار ، عائلة كبيرة ...
في عمالة قسنطينة ،
وسط مزارع فسيحة .



وأهملت المنازل التي يتوسم فيها المرء التحام
العقل واليد بصورة دقيقة مؤثرة .

على أن الانسان بقي ، في الاماكن النائية
التي لم تصلها الطرقات ، وفي الجهات الفقيرة
المحرومة من وسائل النقل وبالتالي من مواد البناء ،
التي كانت تكلف ثمناً باهضاً ، بقي على عادته
يستعمل ما منحه الطبيعة في عين المكان .

إن البادرة القديمة ، والدقة القديمة قد
خلدتا ، وموعظة تلك الهندسة المعمارية « الناجحة »
لا تزال حية تثير إغراء المهندسين المعماريين
العصريين الذين يعانون الكثير من تراكم المواد
واختيارها إلى درجة أنهم لم يعودوا يعرفون كيف
ينجزون أعمالهم .

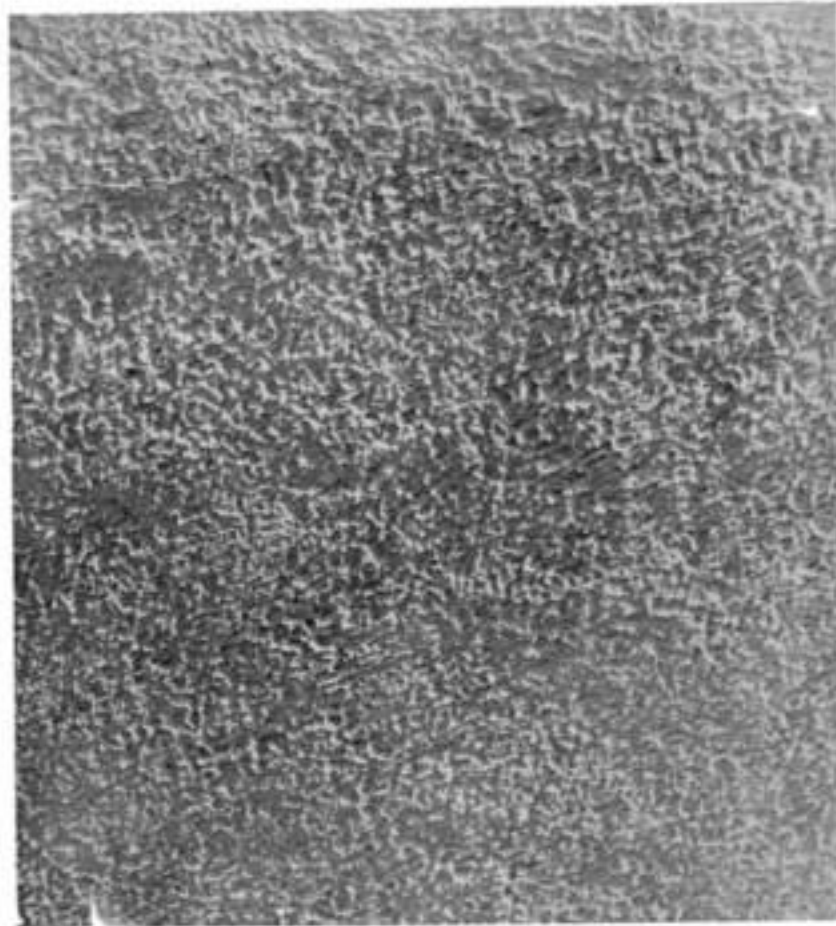
ففي جميع البلدان الافريقية والأوربية على حد
سواء ، اتسعت المدن الحديثة تحت السيطرة
الخارقة التي فرضتها مواد البناء الجديدة وأنماطها .
ولم يبق من هذه المدن إلا الروح الذي احتفظ به
بعض الناس الذين احتارت ضمائرهم احتراماً لها .
وهكذا تولد مفهوم « المعالم التاريخية » عن هدم
الأشياء القديمة التي اعترفت الانسانية والناس
بجمالها ، وهي فكرة تهدف إلى الحفاظ على آثار
الماضي . وقد كان هذا المفهوم عديم الجدوى
قبل اليوم ، وذلك أنه لم يكن أحد يفكر في
إعادة بناء منزله على شكل آخر إذا أصبح بالياً .
بل إن نمط الحياة نفسه لم يكن يتغير إلا قليلاً
قبل عصر الآلة . ولكن لسوء الحظ لم يطبق قط
هذا المفهوم المحافظ إلا على ما كان يسمى بالمعالم ،



بني يزقن عمالة الواحات



الأوراس - غوفي



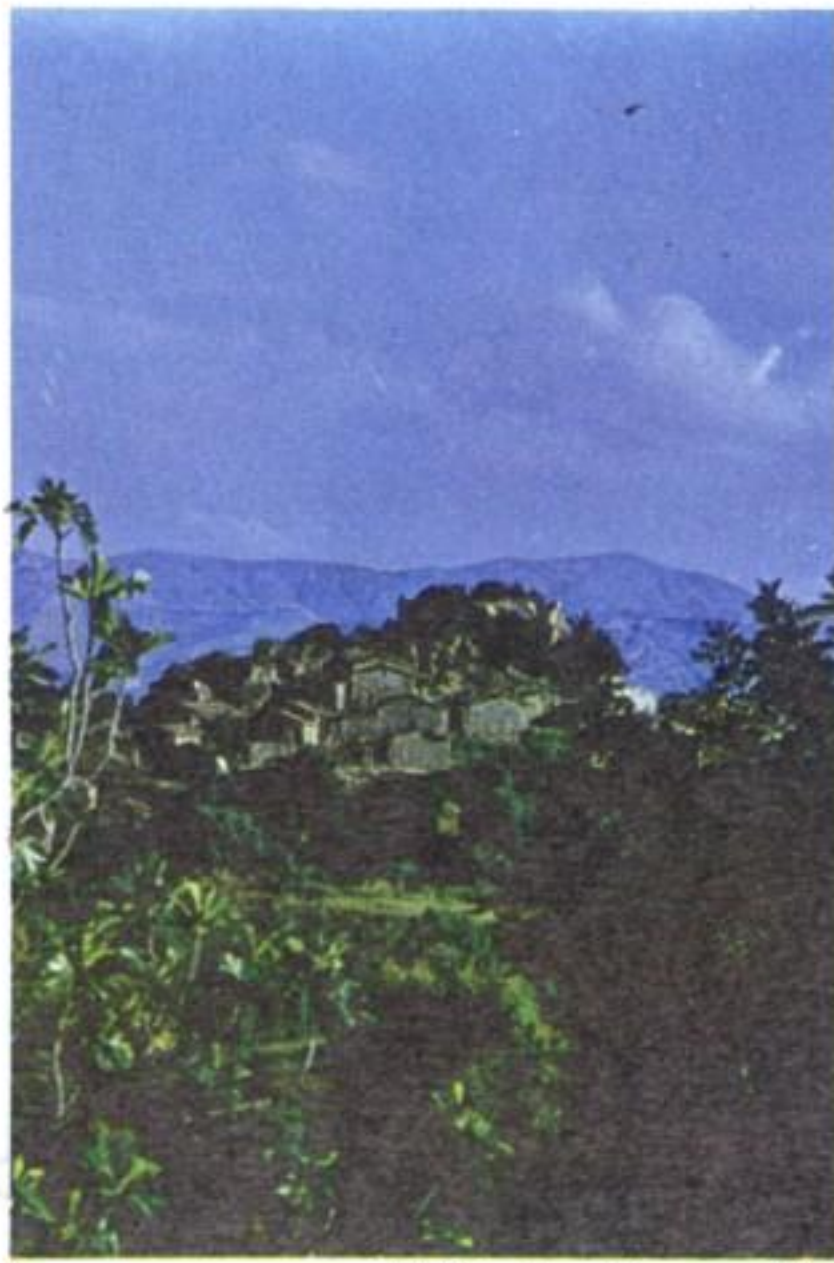
آلات: في المزاب ، الأغواط ، الأوراس ، المزاب...
وهذا الأخير يتحصل عليه بذلك السائل بواسطة
عرجون انتزعت منه ثماره

وأحياناً أخرى في مساحة جغرافية واسعة مثل
بلد أو بلدين مجتمعين من البلاد الأوربية كيف
أن عمل الانسان ، الذي حسنته الأجيال عبر
القرون ، أسفر عن نتيجة حقيقية .

لقد اختار المهندس المعماري « لوكوربيزي »
مدرسة وحيدة لنفسه : هي أن يسأل فن البناء في
الهندسة المعمارية القديمة والريفية . فأسفاره
وجولاته في الشرق معروفة أكثر من تجواله في
الجزائر ، الذي أثر على إنتاجه تأثيراً عميقاً لأنه
وقع في سن النضج دون شك . فالنصوص التي
كتبها في شأن مزاب مثلاً تهيب بذكاء بناء هذا
ال عمران الذي يرجع عهده إلى القرون الغابرة ،
وبالبساطة الواعية لتلك الهندسة المعمارية التي
تمثل القدوة الفضلى . وتشير هذه النصوص خاصة
إلى العلاقات الوثيقة بين الفلسفة و « الحياة الداخية »
التي تفوق أهميتها هناك أهمية الحياة في أوربا
بكثير ، والتي تعبر الهندسة المعمارية عن نمطها .
ذلك الانسجام الذي نال إعجاب هذا المهندس
المعماري الذي عرف كيف يحتفظ به ويعيشه في
كتابه . إن الأمر لم يتعلق ، كما أكد ذلك
بنفسه ، بوضع قاموس للزخرفة العربية (الفن

لقد بقيت الجزائر ، لأسباب سهلة الإدراك
مهذاً حقيقياً للهندسة المعمارية القديمة ، بينما
زالت هذه الهندسة في بقية البلدان الأخرى أو
تكاد ، أو على الأقل في قسمها المتعلق بمسكن
الانسان .

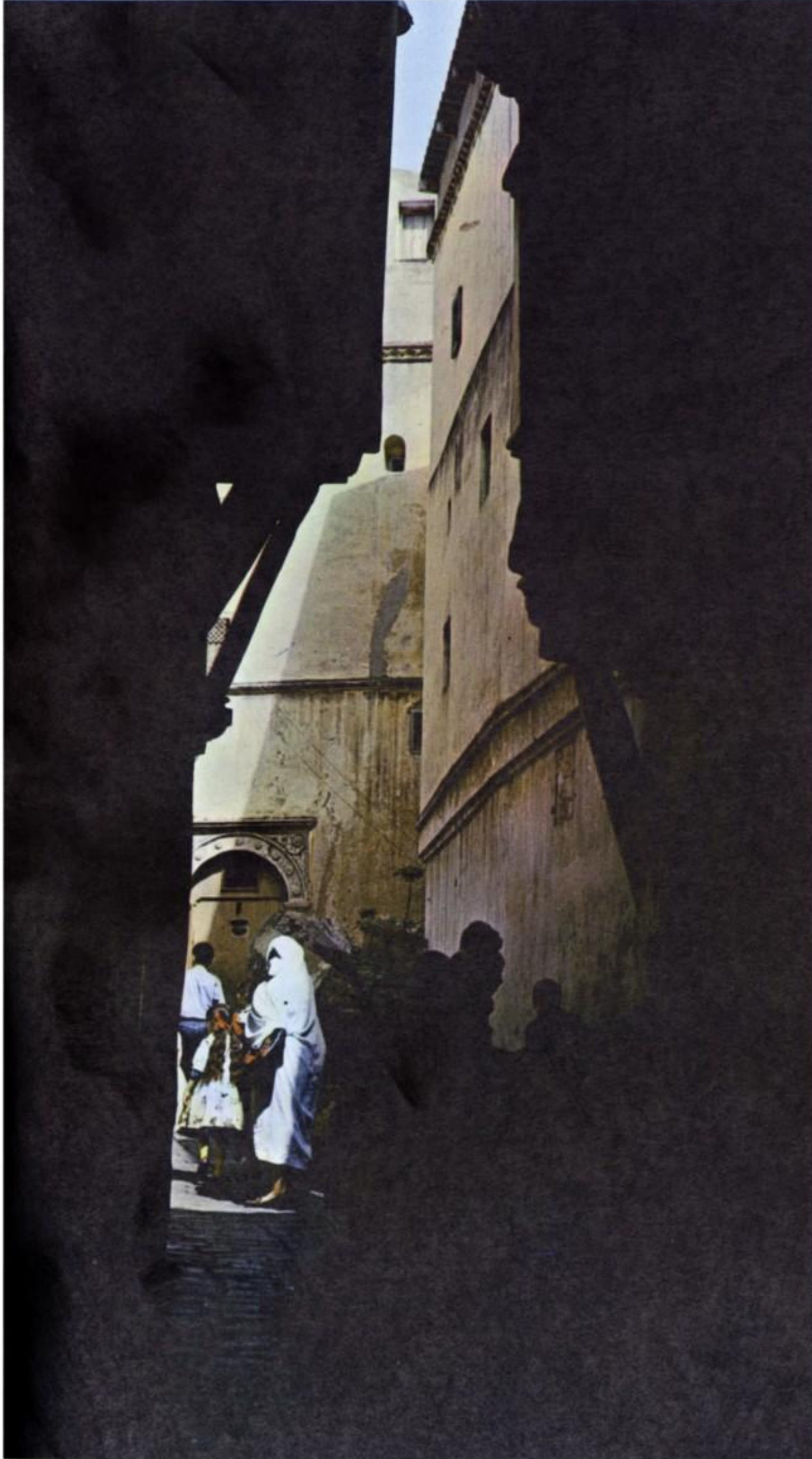
فالجزائر ، وهي الأرض الشاسعة المختلفة
المناخ والجغرافيا من الشمال إلى الجنوب ومن
الشرق إلى الغرب ، التي تتوفر بها التربة والمواد
البنائية المتنوعة ، والأرض التاريخية أيضاً ، التي
غالباً ما كان الغزو الأجنبي يرغم أهلها على
اللجوء إلى الجبال والحصون المنيعة - إن هذه
البلاد تمثل عدة جهات تمتاز بالهندسة المعمارية
الأصيلة والوحدة التي تأخذ بمجامع القلوب .
ونجد اليوم في قرية واحدة في بعض الأحيان ،



قرية صغيرة في بلاد القبائل

ككل واحد يعلم كيف « أن المجلس البلدي الفرنسي » في ذلك العهد . الذي شعر بالاهانة والمس بعباداته التي لم تكن تخضع إلا للمصالح الخاصة ، لم يكتف برفض التصاميم المقترحة عليه فحسب ولكنه طلب من عامل العمالة أن يلقي القبض على هذا « المجنون » العبقري الذي كرس ثلاثة عشر سنة كاملة من حياته . تدفعه

أما سطوح القصبة ، التي تبدو وكأنها درج هائل يهبط نحو البحر ، حيث يستطيع المرء أن يرى الفضاء والبحر ، فان « لوكوبيزي » قد خصص استعمالها لبناء شقق تشرف على المناظر الخارجية ، واستعمال سقوفها التي لا وظيفة لها لأداء دور هذه الطرقات الواسعة لتيسير حركة المرور ، وهي طرقات لم تكن موجودة بعد في عهد بناء القصبة .



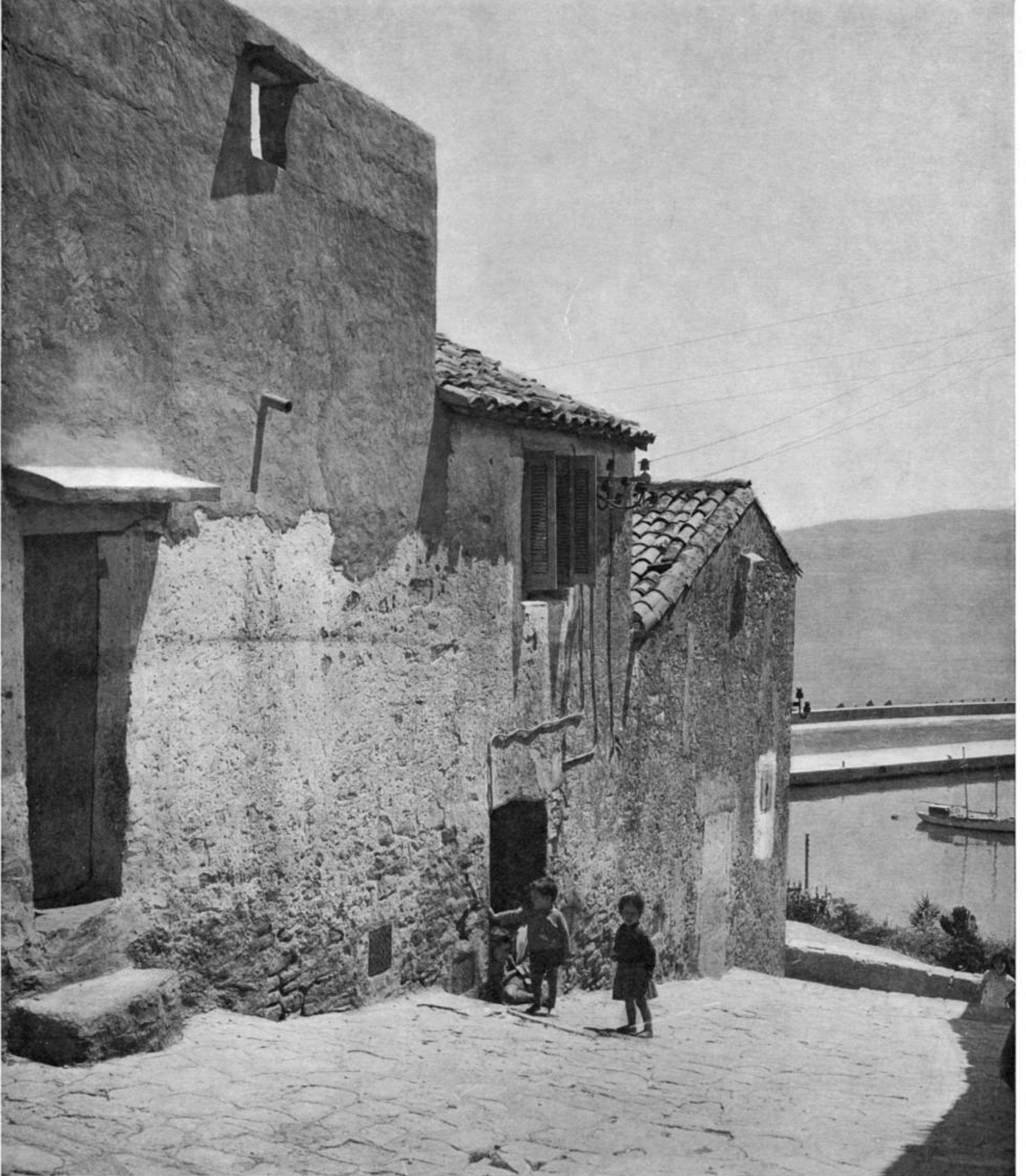
شارع في القصبة بالجزائر العاصمة . تطل النافذة الصغيرة على امتداد الشارع

المعماري العربي الاسلامي الحديث) ولكن بتميز الجوهر ذاته للهندسة المعمارية والعمران .

ثم واصل بحثه فأعطى مثالا عجيباً لما أسماه « بتميز جوهر الهندسة المعمارية والعمران » فمن الدرس المستخلص من حي القصبة وأزقتها الضيقة وواجهاتها التي تبدو منعقدة النوافذ والآبار العميقة التي تجدها في فناء المنازل ، من كل ذلك احتفظ المهندس « لوكوربيزي » بالبناءات العالية الخطوطية التي يمر بها طريق مفتوح لحركة مرور نشطة . وهذا يتفق مع المنطق تماماً . ذلك أنه لمس في الأنهج الضيقة « ظلالاً ونسيماً » ومناعة المارة وانعدام ضجيج المحركات والأبواب والروائح وبخار البنزين . وقد عبر عن ذلك « بالأروقة الداخلية » أو البنايات المروقة التي يحميها هذا الرواق الممتد على طول واجهاتها من حرارة الشمس الشديدة .

أما بخصوص الواجهات التي تكاد تكون عارية تماماً فإنه لاحظ عن حق تلك النوافذ الصغيرة ، التي تتخللها ، والتي تكاد تند عادة عن أنظار المتجول البسيط بترتيبها المنحرف لتمكين النساء الأكثر انزواء من الرؤية على طول النهج . وقد سجل بهذا الشأن : « لا أحد يواجه أحداً » والمواجهة هنا هي تلك المضايقة التي يشعر بها الانسان عند ما يفتح نافذته فيرى جاره المقابل لا أنه يستطيع أن يراه فحسب ولكنه يرى كل ما في داخل الغرفة . وقد عبر عن ذلك : « بنايات تنجس نحو الفضاء لا تتقابل فيها أنظار الجيران » . ولقد أعجب بما رآه في القصبة من أن مشاكل « الخلو » و « الاضاعة » قد وجدت حلها في وجود فناء بكل منزل ، بينما حل مشكل « العمران » الذي يبحث عنه الناس اليوم لايجاد متسع للمشاة يحيط بالمباني ويحميها في وجود الأنهج الضيقة وكل ذلك بوسائل غير عصرية .

رغبته الجامعة في تكييف عبقرية هذه الخصائص
الدائمة للهندسة المعمارية والعمران اللذين اكتشفهما
في القصبة وفي الجزائر مع الوسائل العصرية .
لذلك لا ينبغي أن نتحدث عن « نمط »
الهندسة المعمارية الجزائرية ، ولكن عن الروح
الجزائرية للهندسة المعمارية . وإذا كان المنزل في
واحة ميزاب - تلك الناحية الصحراوية التي تقع





→ قبب في تاملهات ، ناحية توقرت

على 600 كم جنوب العاصمة ، والتي تمتاز بتاريخها الثقافي الحافل - إذا كان يبدو لأول وهلا لا يشبه في شيء المسكن في شمال الأوراس ، وإذا كان هذان المنزلان اللذان يشكل كل منهما قسماً من تلك الوحدة الكبرى ثمرة روح واحدة - فان نفس الخصائص موجودة بهذا وذلك بالرغم من اختلاف الظروف والبعد والجغرافيا والمناخ . إن التاريخ نفسه أراد أن يجمع بينهما بتقارب روحي كبير .

إن الجهات الكبرى المختلفة للهندسة المعمارية الجزائرية تجمع بينها - مع قوة شخصيتها - ميزة رئيسية تتمثل في الحشمة والاعتدال وصفاء الخطوط والمستوى الانساني ، وفي ذلك التقشف الاسلامي الذي يجعلها تفضل دائماً الدقة و « الدخلائية » على اللمعان .

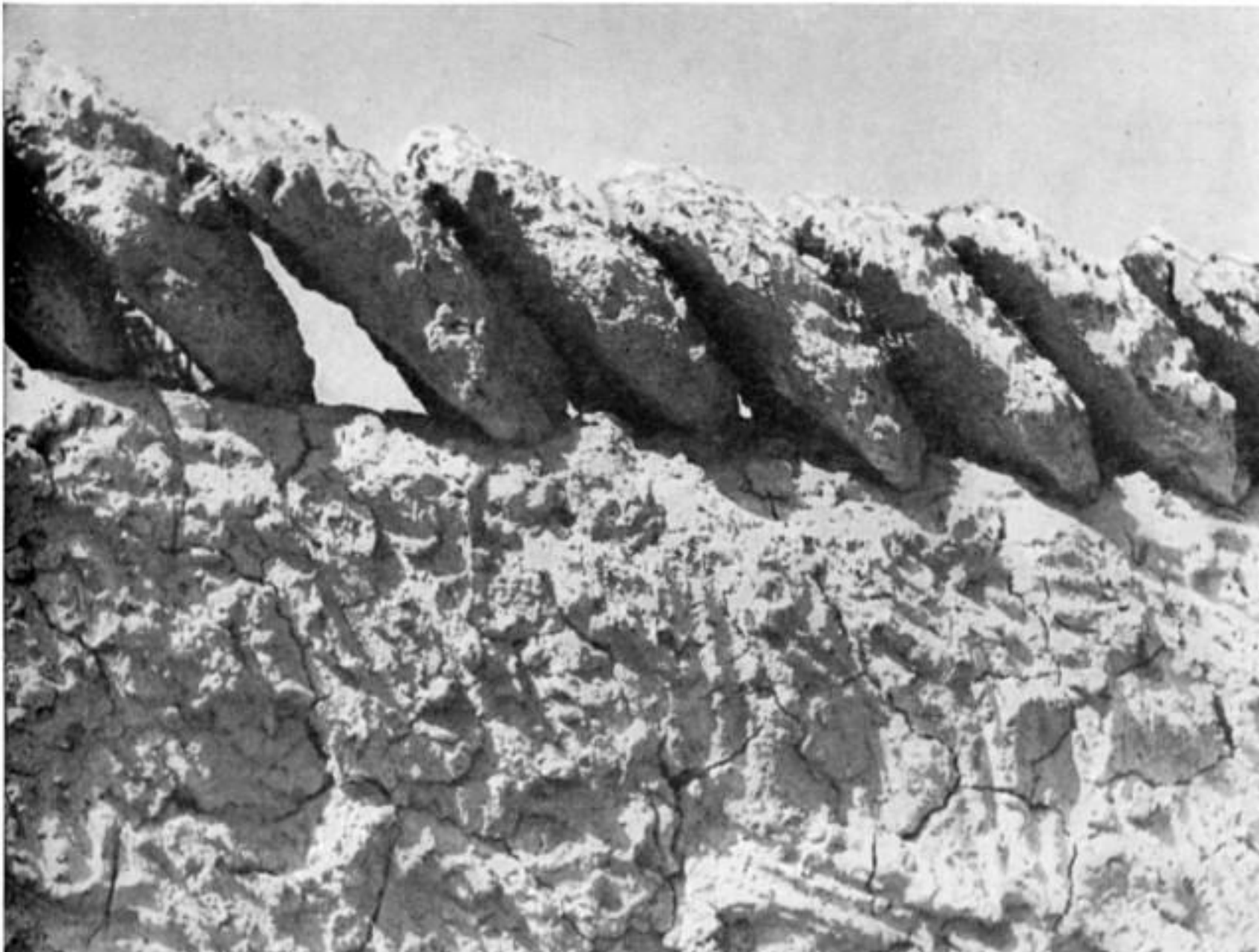
فالبادرة البناء تتجلى في أصالتها وتقرأ بوضوح في أصغر منزل من منازل طولقة أو تيماسين وأكثرها تواضعاً . فالشاب المهندس المعماري في الجزائر (وفي أوروبا وفي العالم) يجد هنا الدرس المطلوب ، إذ ليس بها ما هو عديم الجدوى أو زائد . وذلك أن عقل كل واحد قد أوحى بصناعة جزء من الدرج أو الطنف أو السقيفة بكثير من الشغف والسليقة في آن واحد ، إلى درجة أن المرء لا يستطيع إدراك ما يمكن أن تحتوي عليه البساطة من جمال إلا برؤية هذه الهندسة الرائعة .

فالزخرفة ، كما يتصورها العقل ، منعدمة من هذه الهندسة التشفية بطبيعتها ، لكن كل عنصر من عناصر تكوينها زخرفة في حد ذاتها . وإذا أخذنا عارضة ما ، من تلك التي أشرنا إلى أهميتها فاننا نجدها بمثابة منفذ للتهوية ، سواء بحكم ترتيبه فوق الواجهة إلى جانب المنافذ الأخرى التي توازيه ، أو بشكله الذي يشبه « الورديات » المصنوعة من الحجر أو اللبن في الأوراس .

إن ناحيتي ميزاب وسوف هما الوحيدتان اللتان نجد بهما الهندسة المعمارية الجزائرية المحضة ، حيث كان استعمال الأقواس لا يختلف في المنازل عنه في المساجد . فالأقواس هنا لم تبين بالأسمنت ، الأمر الذي يسهل إنجازها (مع الملاحظة أن هذه الجديدة لا تلائم بناءها) ولم تكن أيضاً



↑ إحدى قبب المقابر في المسيلة (سيدي سعيد)



جدار سور من الطوب في الزيبان



دار في الأوراس

وبما أنه من المستحيل إيجاد خصوص أكبر من تلك الأحجام المتساوية نسبياً ، فإن القوس التقليدي في ميزاب يضيف على الجهة مستوى واحد ، سواء في المساجد أو في المنازل ، مستوى داخلي يشكل المستوى البشري بالذات .

إن هذه الروح نراها هنا تتجلى رغبة في التقشف ، ونراها في غير هذا المكان تتمثل في التقشف الضروري ، الذي يفرضه نقص الوسائل وقساوة المناخ وصعوبات الحياة ، وهي في كلتا الحالتين تبدو وكأنها جمال ساحر يحرك اليد الصانعة ، اليد التي تعرف كيف تصنع .

وسواء كان الأمر يتعلق بقوس المدخنة (الذي يكثر استعماله محلياً في الجزائر) أو قوس



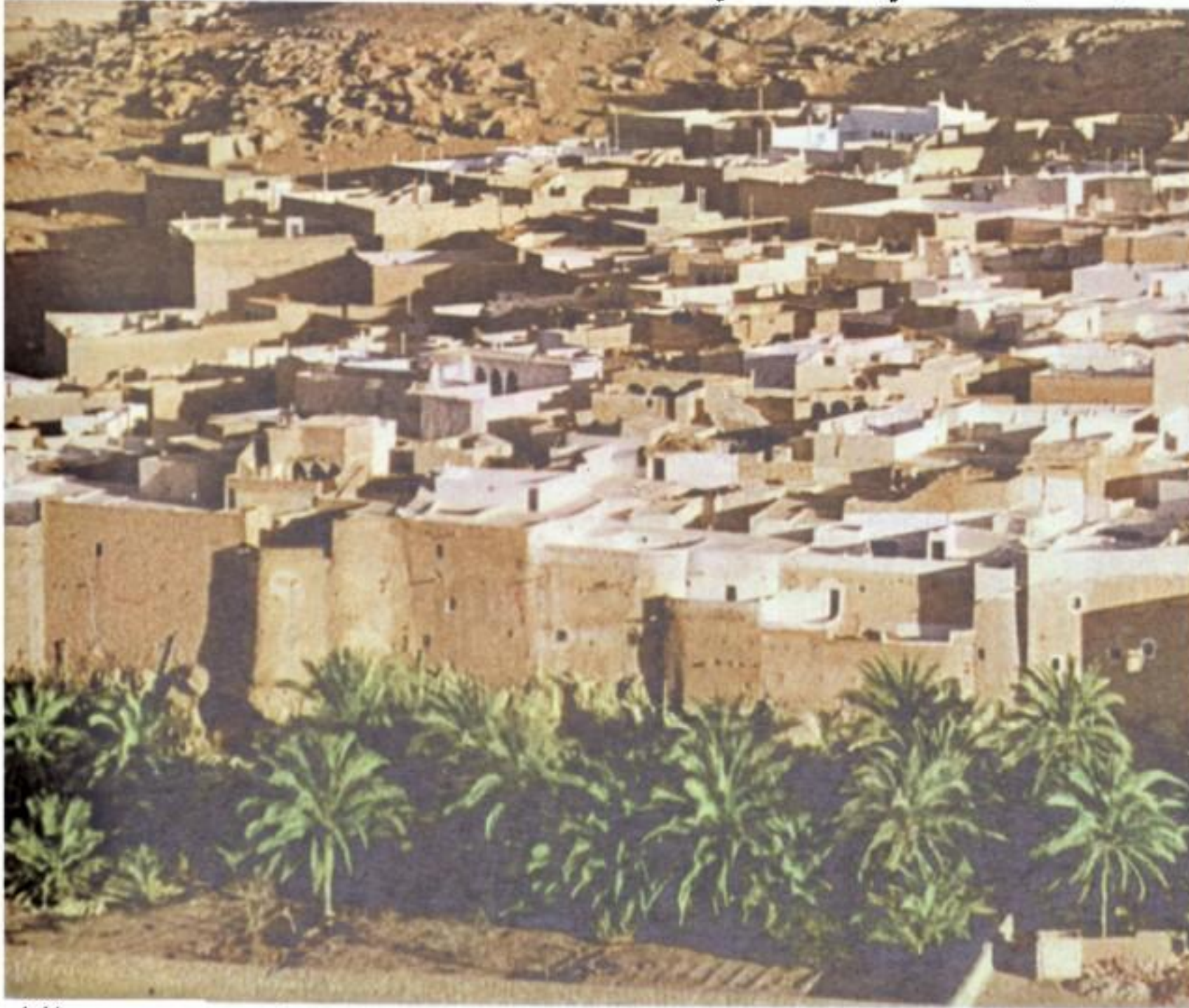
إحدى الأقواس العتيقة في المزاب ، العطولس

مصنوعة من الآجر أو الحجر المصقول ، كما نستطيع أن نرى ذلك في بعض المساجد أو في بعض أروقة القرى النادرة أو في المنازل الكبرى بالجزائر الشمالية - ولكن القوس الميزابي مصنوع من حوص النخلة ، الذي عوض أن يستعمل لاقامة البناء بقي ممزوجاً في البناء نفسه . وهو في حد ذاته زخرفة ، رغم أنه غالباً ما يكون الوحيد بالنسبة إلى الهندسة التي يتوجها .

فجمال هذا القوس يكمن في أن حوص النخيل لم يكن أبداً متساوياً من حيث الحجم ، إذ أنه يختلف اختلافاً طفيفاً بالقياس إلى صف واحد من الأعمدة ، اختلافاً في العرض أكثر منه في الارتفاع .



↑ صومعة من الطوب في سيدي الحافي ، رفيق سيدي عقبة



ديار محصنة ، وسطوح في بنونورة ، المزاب

الدرج أو السطوح الجميلة الترتيب المتعددة أو بذلك القرميد المسمى « بالروماني » والذي نراه في المساكن القبائلية ، فان كل ذلك يشكل أحد الآثار الأخيرة الحية من آثار الانسان المهندس المعماري . إن الانسان الذي يقطن المدينة أصبح يجهل فن البناء ، لأنه صار مقيداً بكثير من المتنوعات الظاهرية والعتاد ، وحائراً ، أكثر من المهندس المعماري نفسه ، في الاختيار المعروض عليه في الأنهج أو في المجالات المختصة وغير المختصة ، التي لم تكن في يوم من الأيام وسيلة صالحة للتعليم . على أن الانسان الذي يقطن الأرياف ، في داخل الجزائر ، لا يزال يعرف فن البناء ؛ يعرف كيف « يعالج » الحجر أو اللبن (الطوب) بدقة لم يعرفها إلا القليل من البناة أو المهندسين في العالم . وقد آن الأوان أن



دولمان بونوارة

نطلب منه إفادتنا بهذا العلم الثمين قبل أن يغريه
التقدم المتزايد فيحمله على النسيان .

إن تأليف كتاب في هذا الفن لا يكفي
لابراز كل جوانبه . لأن ذلك لا يعدو أن يكون
سرداً للخطوط الكبرى للهندسة المعمارية الجزائرية
لا غير ، وهي الهندسة المعمارية التي تبحث عن
الطبيعة وتريد أن تكون في مأمن من أخطارها
في آن واحد ، والتي تعبر عن فلسفة حياة بسيطة
ومثالية . لقد ذهب الناس مذاهب شتى في تشبيه
هذه الهندسة المعمارية بتلك التي تريد « الموضة »
أن تفرضها على جميع بلدان حوض البحر الأبيض
المتوسط في صورة نموذجية تمثل واجهات كبيرة
بيضاء تتخللها نوافذ صغيرة بأقواس . وهو تبسيط
للأشياء يجب الاحتراز منه . فالعالم الحديث لا
يعكف أبداً بصورة كافية على ما تركه الأجداد



دولمان بونوارة

من رسوم . والجزائر تملك اليوم من هذه الرسوم
ثروة لها قيمتها تجعل من هذا البلد - بالاضافة
إلى جمال المواقع - أرضاً مأثورة ومفضلة .

إن المهندسين المعماريين الجزائريين يستعدون
اليوم للحفاظ على هذه الثقافة المتمثلة في معالجة
الحجارة والتربة والمادة التي بقيت من حيث
تنوعها على حالتها الخالصة ، وإبراز قوتها
وأصالتها ودرس خصائصها الدائمة إلى الوجود ،
إلى الناس .

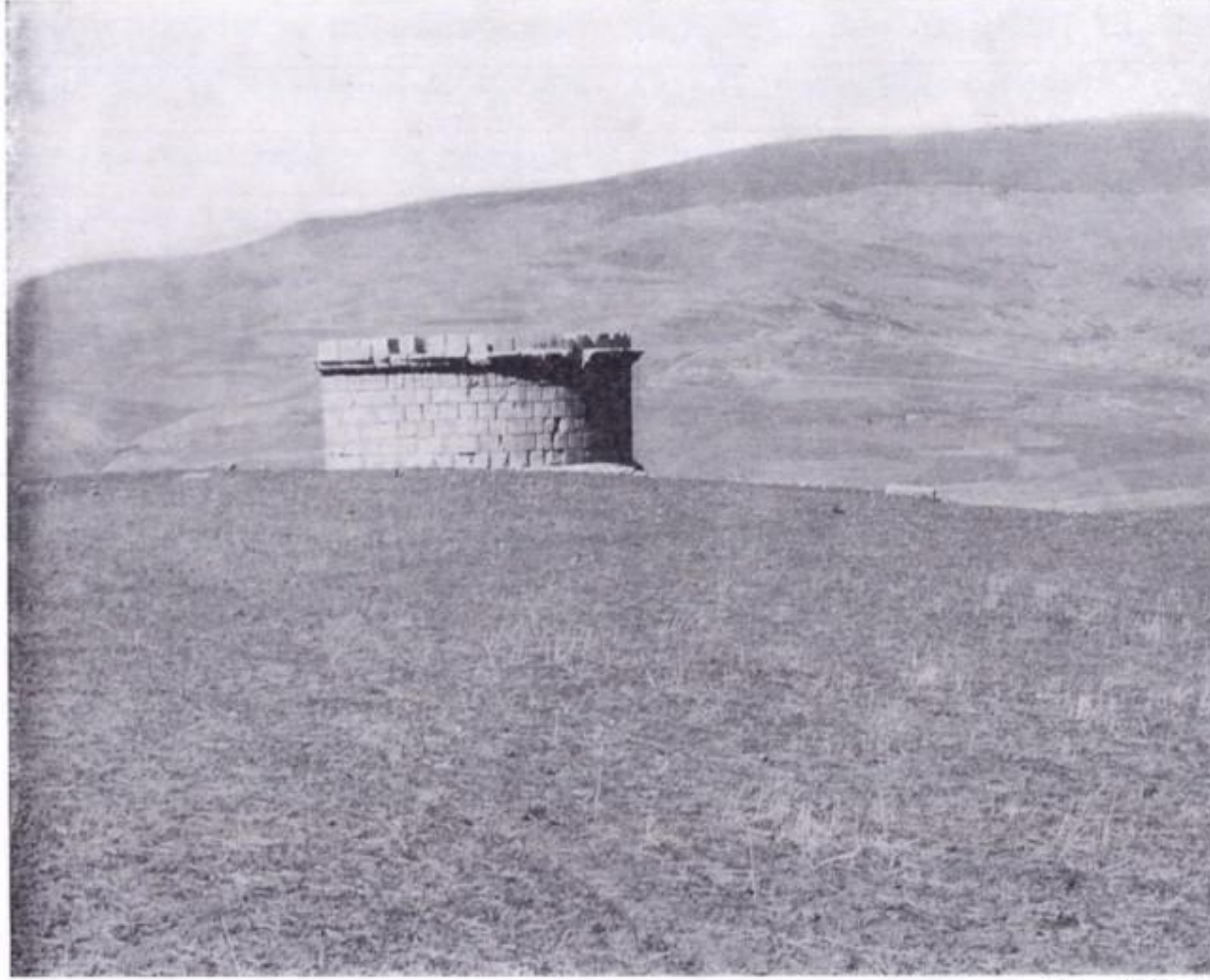
الجانب التاريخي

إن وضع جزء من صخرة أو صخرة
منبسطة ، ووضع أخرى ذات زاوية مستقيمة ثم
ثالثة موازية للأولى وتغطية هذه « الجدران »
الثلاثة ببلاطة ضخمة ، تلك هي البادرة
البداية الأولى في البناء ، وذلك هو ما يسمى
بالنصب .

كليوباترة سيلين
بنت كليوباترة الكبيرة
وأنطوان زوجة جوبا
نامت طوال قرون
في هذا القبر
الذي يبدو عبر المتيجة
ويبدو أيضاً من البحر على مسافة بعيدة
واليوم أيضاً يصلح مناراً للصيادين

فالانسان ، ذلك الكائن الضعيف جسمانياً ،
الذي تربيته أمه وتعتني به ويغذيه أبوه خمس حياته
(ربع حياته اليوم) خلافاً لدنيا الحيوان ، إن
هذا الانسان كان دائماً في حاجة إلى مأمن .
والانصاب ليست بمأمن ولكنها لحدود . والانسان ،





القبر الكبير لتديس

خلافاً لدنيا الحيوان إلى أن يحصل العكس ، كان أيضاً في حاجة إلى البقاء ، إلى ضرائح لدفن الأموات وإلى إله أو أكثر لطمأنة روحه . لم يتوصل علماء التاريخ إلى تحديد عهد الانصاب في الجزائر بصورة مضبوطة . ومعلوم أن هذه الأنصاب تضم أحياناً - علاوة على الاجسام المدفونة - جواهر من النحاس ، ونقوداً ترجع إلى عهد قرطاجة أو نوميديا ومصنوعات فخارية . والأشياء التي استطاع العلماء ضبط تاريخها ترجع إلى القرن الثالث أو الثاني قبل الميلاد . ولعل الناس الذين خلفوا تلك الأنصاب ، أو البعض منهم على الأقل ، كانوا يعيشون في بيوت من الحجر أو من التربة الكثيفة ، التي تشكل وقاية مؤقتة كاملة من البرد أو الحرارة أو الحيوانات الضارية . وبهذا الصدد نجد في حي من أحياء بسكرة القديمة بيوتاً من اللبن (الطوب)

لا تكاد تتميز عن الطبيعة التي خرجت منها ، مما يعطينا فكرة عن ميزة هذه البيوت التي غالباً ما تكون جد جميلة ، ولكنها قابلة للاضمحلال مع طول الأمد .

إن الاهتمام بالبقاء ، الذي طغى على الحاجة إلى المأمن ، قد خلف في الأرض الجزائرية أول رسوم تدل على الرغبة في البناء بقت ووضحة حتى عصرنا هذا . وقد تم اكتشاف حقل بقرية الركنية بالقرب من قسنطينة يضم 3000 نصب . ومن المؤكد أن هناك حقولاً أخرى من هذا القبيل لا تزال مجهولة .

لقد كانت الضرائح موجودة في الجزائر قبل الفتح الاسلامي وقبل الاحتلال الروماني بالذات ، ثم في العهد الروماني نفسه . وكانت هذه الضرائح المحلية المستديرة الشكل تسمى « شيشي » لأنها تشبه « الششية » . وقد كانت هذه اللحد ، التي يتراوح قطرها بين ثلاثة وخمسة أمتار وارتفاعها



مدراسن



قبر مسينصا

يستهوئ الأنظار من بعيد ، مثل كل القبور الكبرى لذلك العهد .

ولنبق في ضواحي قسنطينة ، أي في الخروب الواقعة جنوب العاصمة الشرقية حيث يوجد قبر مربع الشكل على جانب كبير من الأهمية ، يرقد فيه أحد كبار المحاربين البربر ، ربما كان ماصينصا . ويوجد هذا القبر بالضبط في موقع جبلي يبدو للناظر من بعيد (إذ أنه يشرف على قسنطينة وسهولها الفسيحة التي تمتد حتى أبواب الأوراس) ! فهو بمثابة قاعدة ضخمة مكونة من الصخور الكبيرة المصقولة والمنقوشة بدقة . وقد كانت تعلوه أعمدة تهدمت اليوم ، يحتمل أنها كانت مغطاة بسقف هرمي الشكل تحيط به أطناف



القبر الكبير لتديس

بين مترين وثلاثة أمتار ، تمثل بنايات صغيرة . إذ أنها كانت تبني بالحجارة المنبسطة بغير ملاط وتسقف بملاطة أو عدة أملاطة . ونجد على هذا الشكل المستدير أيضاً (مع الفارق العظيم في الحجم) « مدرسن » الأوراس الشهير ، الذي يرجع تاريخه إلى القرن الثاني أو الثالث قبل الميلاد . وتعلو هذا الأثر التاريخي قبة هائلة على شكل منحروط مدرج . إن الحجر المصقول الذي تتكون منه هندسته المعمارية يدل دلالة واضحة على إمكانيات البناء في ذلك العصر . وفي هذا المضمار نشير إلى ضريح آخر من هذا القبيل ، أي ما سمي خطأ « بقبر المسيحية » . ونقول خطأ لأنه يكاد يكون من غير المحتمل أن يضم هذا الضريح رفاة كليوباترا سيليني ، بنت كليوباترا الشهيرة . ولو سلمنا بصفة ذلك ، أصبح أن « سيليني » كانت تدين بالمسيحية ؟

ومهما يكن من أمر فإن هذا الضريح يشكل بالنسبة إلى المصرية الصغيرة منظرًا طبيعياً مزدوجاً : منظر سهول متيجة التي تحدها جبال الأطلس التي جنوباً ، وامتداد البحر المتوسط شمالاً .

لقد كان باب هذا الضريح على شكل مقصلة ، أي كان مكوناً من بلاط كبير يتزلق بين قطعتين من الحجر المصقول ، وينفتح على دهليز حلزوني الشكل ، مبني بالحجر المصقول الجميل وينتهي في أعلاه بحنيات تشبه المهد ، ويؤدي هذا الدهليز إلى المكان الذي يرقد فيه الموتى ، والذي داسته الأقدام قبل أن يكتشفه علماء الآثار .

وهناك ضريح آخر في أهبة الضرائح الرومانية ، ونعني بذلك ضريح « تديس » المستدير الشكل ، الذي أقامه أحد الجزائريين لنفسه وهو على قيد الحياة . ويبلغ قطر هذا القبر حوالي عشرة أمتار ويرتفع سفحه في صورة منحدر

رشيقة . أما الاتراس (تذكّار النصر) فانها منحوتة في الصخور . وقد كان هذا القائد يرقد في تابوته المزخرف بالفضة مع خوذته وأسلحته ودرعه المشبك (كل هذه الأشياء معروضة اليوم في متحف قسنطينة) .

وفي ناحية الهقار ، بتمرية « عبانسة » الواقعة قرب تمراس بني قبر الأميرة « تين هينان » قبل الفتح الاسلامي بقليل . لقد قدمت هذه الأميرة ، أم قبائل الطوارق النبلاء من « تافيلالت » . ويمتاز قبرها عن تلك التي ذكرناها بخاصية كبيرة : فهو لم يكن ضريحاً فحسب ولكنه كان - وهذا جد محتمل - قلعة كانت تسكنها الأميرة وجنودها قبل أن تتداعى من





تمغاد

فوقها القاعة وهي راقدة على سرير من الخشب المنقوش ، حاملة لباساً من الجلد الأحمر وجواهر من الفضة والعقيق والذهب .

وتتكون جدران هذه القلعة الكثيفة من حجارة كبيرة متناسقة (تتراوح كثافة الجدران بين متر واحد وأربعين ستمتراً وثلاثة أمتار وسبعين ستمتراً) . ومن الخارج تبدو هذه



الجزائر في القرن السابع عشر



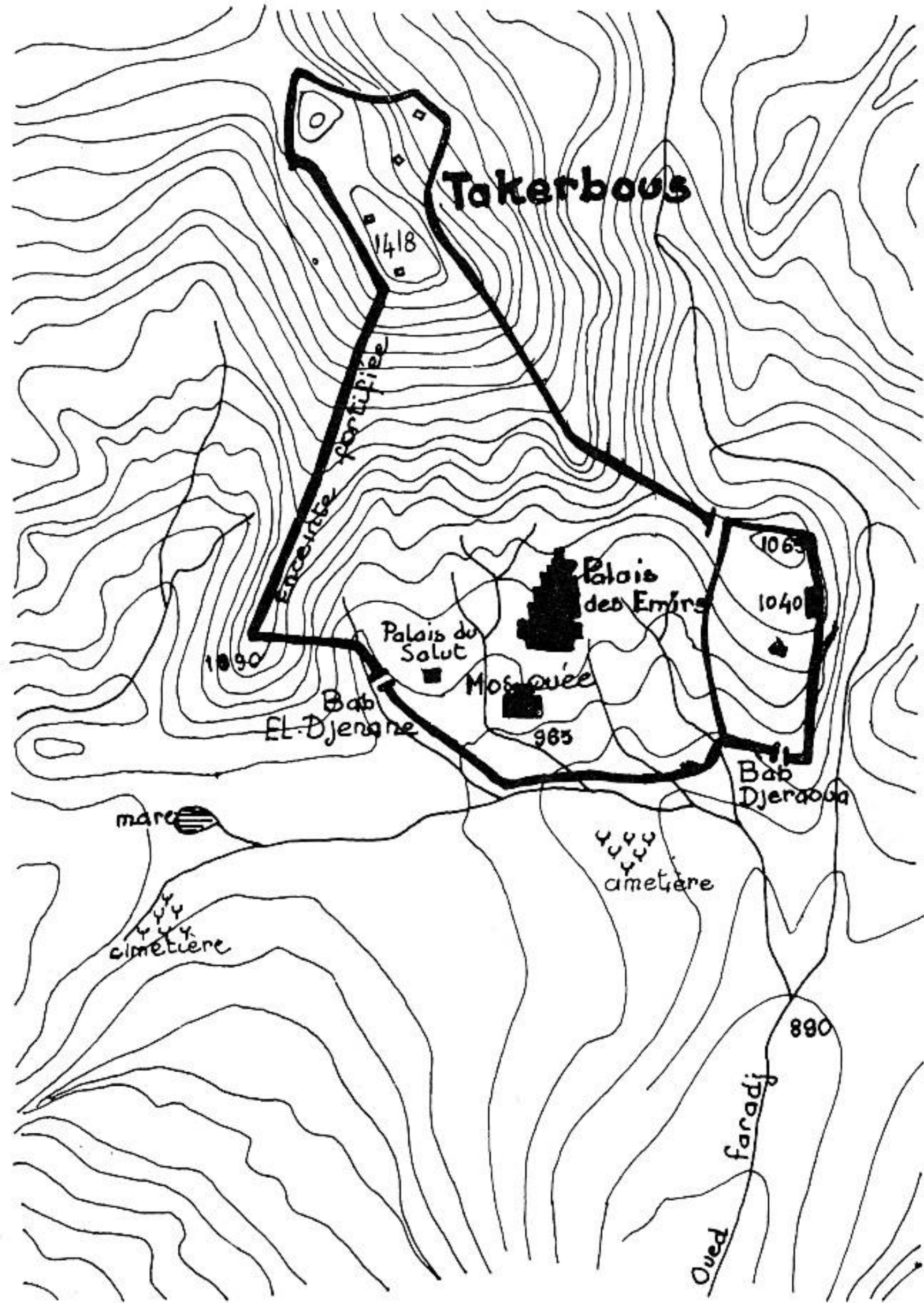
الجزائر في القرن التاسع عشر

الجدران منحنية ليس بها زوايا . أما الغرف الحادية عشر الداخلية فانها بنيت على شكل منحرف غير منتظم الأضلاع ، وتتصل ببعضها دون أن يكون لها دهليز مركزي . وهذه القلعة باب واحد فقط ، الأمر الذي يدل على أنها قلعة . إن هذا النمط للهندسة المعمارية ، الذي لم يدرس إلا قليلا سيجلب الاهتمام مرة أخرى من دون شك ، إذ أنه يتعلق بأول بادرة بنائية في المقار ، وهذا يستحق أن يشار إليه .

هل كان الانسان لا يبني إلا لنفسه فقط ؟ ذلك أنه لم يحصل العثور على مساكن معاصري هذه القبور التي تحددت الزمن مع ذلك ، أو أن الحضارات المتتالية كانت تكتسح بعضها البعض في تلك العصور القاسية ، عصور الغزو والحروب ، فلم تحترم سوى هذه الضرائح إحتراماً للشعوذة والخرافات ؟

لقد قامت مملكة الأمراء في ضواحي تيارت من القرن السادس إلى القرن السابع بعد الميلاد ، ببناء الجدار . ويعلو هذا الجدار المربع التصميم بناء آخر على شكل هرم مدرج ذي زوايا غير حادة . ومما لا شك فيه أن هذا البنيان كان مكلا بسطح ، الأمر الذي يذكرنا بهيكل « إنكاس » بالبيرو . ولعل هذا السطح كان محلا للقربان أو الضحايا . ولعل الدرج قد عرف ارتقاء الجماهير إلى القمة فكل ذلك محتمل . ويحيط بهذا النصب التذكاري سور مربع الشكل هو الآخر ويبعد عنه بعدة أمتار . ويتكون الحائط العمودي الذي يفوق الدرج ارتفاعاً من الحجر المصقول .

وهناك أيضاً مدخل يؤدي إلى الرواق على شكل مربع أيضاً قد بنيت في أركانه الأربعة قبور كلها في اتجاه واحد ، أي تتجه نحو الشرق . وفي الغرف تصطف القبور على طول الجدران .



تصميم قلعة بني حماد

Echelle:





القلعة

إن أصالة هذا البنيان من حيث هندسته المعمارية تكمن في الحنيات التي تشبه قليلاً الحنيات الرومانية ، والتي تنتهي في أعلاها بعقد منكسر فوق الغرف أو بعقد يشبه المهد فوق الأروقة ، مغطى بالأملطة العريضة الطويلة التي تحتل عرض الدهليز كله وترتكز على الجدران من كل جانب . ونجد فوق هذه السقوف المغطاة بالأملطة فراغاً مغطى هو الآخر بالملاط . ومن شأن هذا الفراغ ، الذي يبلغ ارتفاعه سبعين سنتراً ، أن يخفف من ثقل الغطاء الذي قلنا أنه مكون على شكل هرم مدرج مملوء بالضرورة ، وبالتالي ثقيل جداً . أما الأبواب الداخلية المؤدية إلى الغرف فإنها تمتاز بتقش بارز هندسي يشبه

إلى حمد الغرابة تلك النقوش التي نجدها على أبواب المنازل القبائلية الحالية .

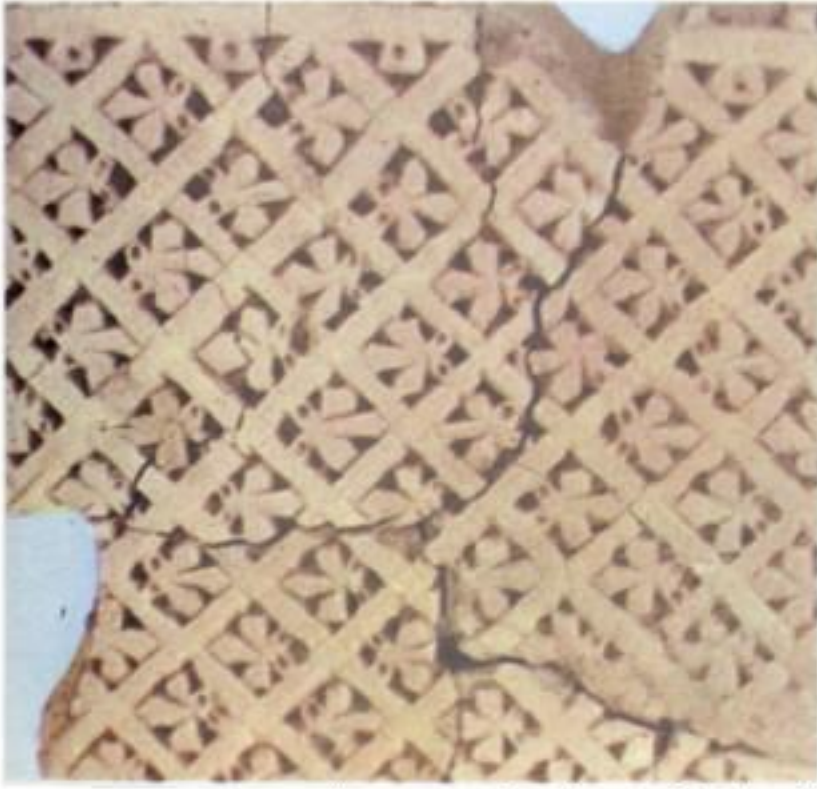
من المؤكد أنه يبقى علينا أن نقول الكثير ونعمق البحث ، علاوة على الدراسات التي تمت بعد ، حول الهندسة المعمارية للضرائح في الجزائر ، التي لم ننته بعد من معالجتها . غير أننا سنتطرق إليها من الآن فصاعداً في نطاقها الحديث .

فالقبور التي سنذكرها بصدد الحديث عن الهندسة المعمارية التي تحيط بها هي الضرائح الإسلامية . ذلك أن عهد الاحتلال الروماني وهندسته المعمارية في الجزائر قد درس كثيراً ، مما لا داعي للوقوف عنده طويلاً . على أنه ينبغي أن نلاحظ أن الرومان قد عملوا على تطوير مظاهر العظمة

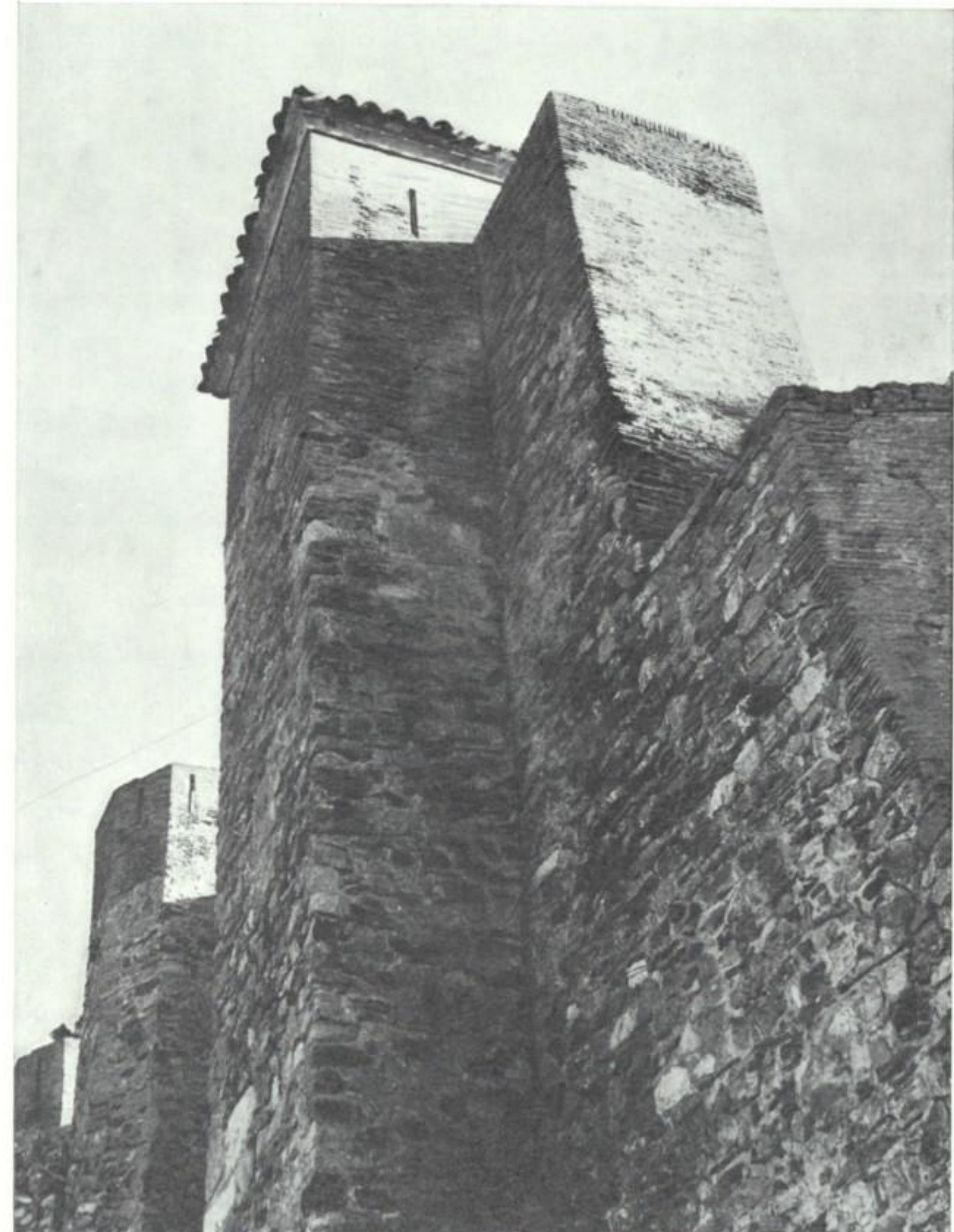
في مدنهم الجزائرية بتدر تطور الحياة العمومية .
لكن الميادين الفسيحة وألعاب « السرك » والمسرح
لم تكن لتؤثر تأثيراً حقيقياً على الحياة المحلية .
وباستثناء الحمامات ، حيث كانت تلتقي نخبة
الشباب ، والتي فقدت هي الأخرى جانبها
« التأسيسي » للحياة العصرية ، فان جميع التظاهرات
الأخرى والأماكن العمومية لم يبق لها أثر في
الحضارة الاسلامية التي تلت العهد الروماني ،
فطبعت الأشياء بروحها . وخلافاً للآثار الرومانية
فان نمط البيوت التي تمتاز بالفناء (وسط الدار) ،
الذي هو علامة من علامات الحوض المتوسط
لحماية الداخلية العائلية ، قد بقي على حاله دون
أن يستطيع أحد أن يقول أكان نمطاً مغربياً
تلقائياً أم لا .

القوة والأناقة
باب فوكه
بقي الشاهد الوحيد
لروائع بني حماد في بجاية

لقد بدأ الفتح الاسلامي في الجزائر حوالي
القرن العاشر الميلادي بفتوحات عقبة بن نافع في



↑ ملاط في اسدراتن ، منظر عصري

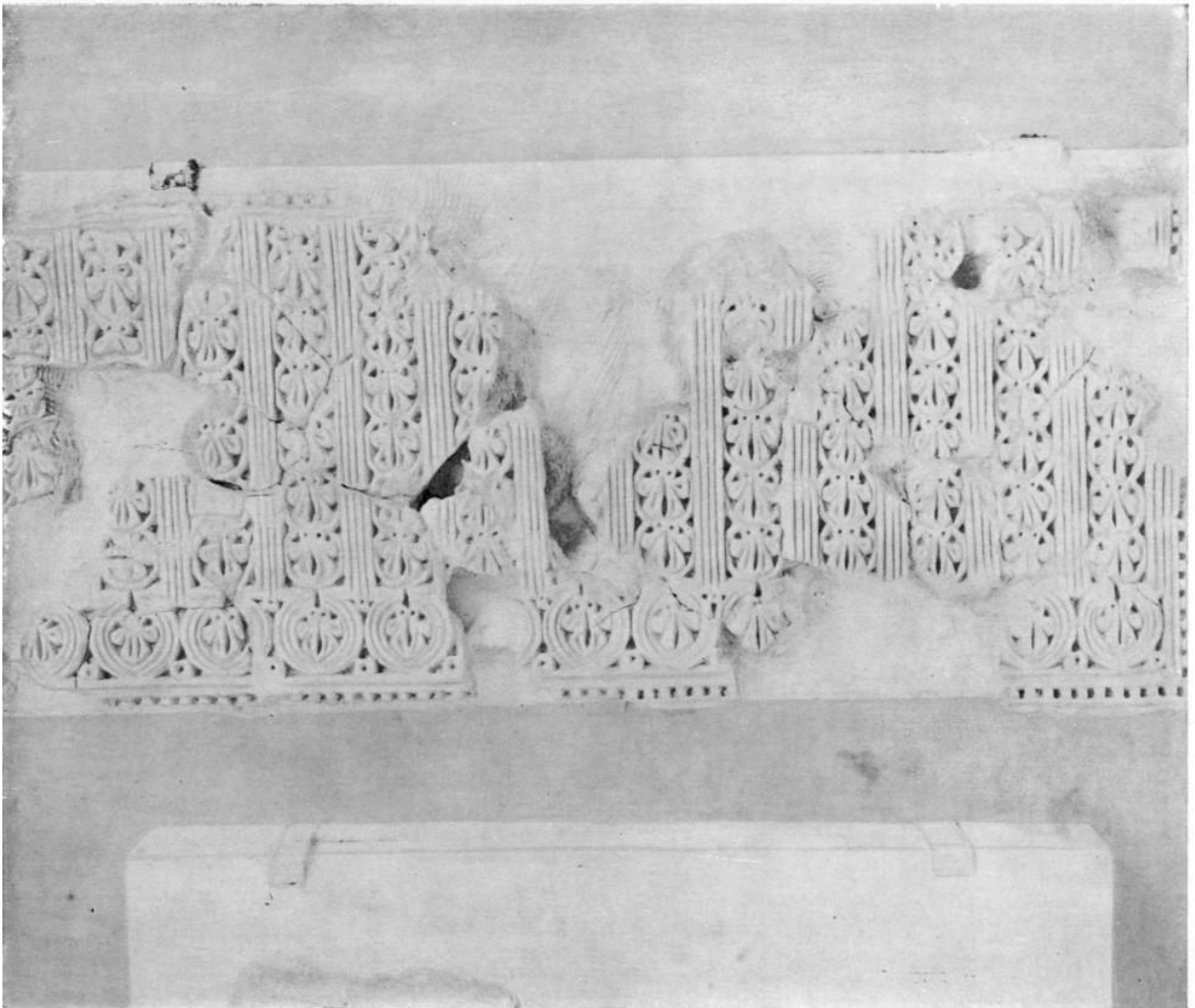


عهد دولة الأمويين ببغداد . وفي القرن الثامن
الميلادي قام الأمويون ، ومن بعدهم العباسيون
بفتح إسبانيا ، ممهدين بذلك لخلق مهد للهندسة
المعمارية الأندلسية المسماة « بالاسبانية -
العربية » .

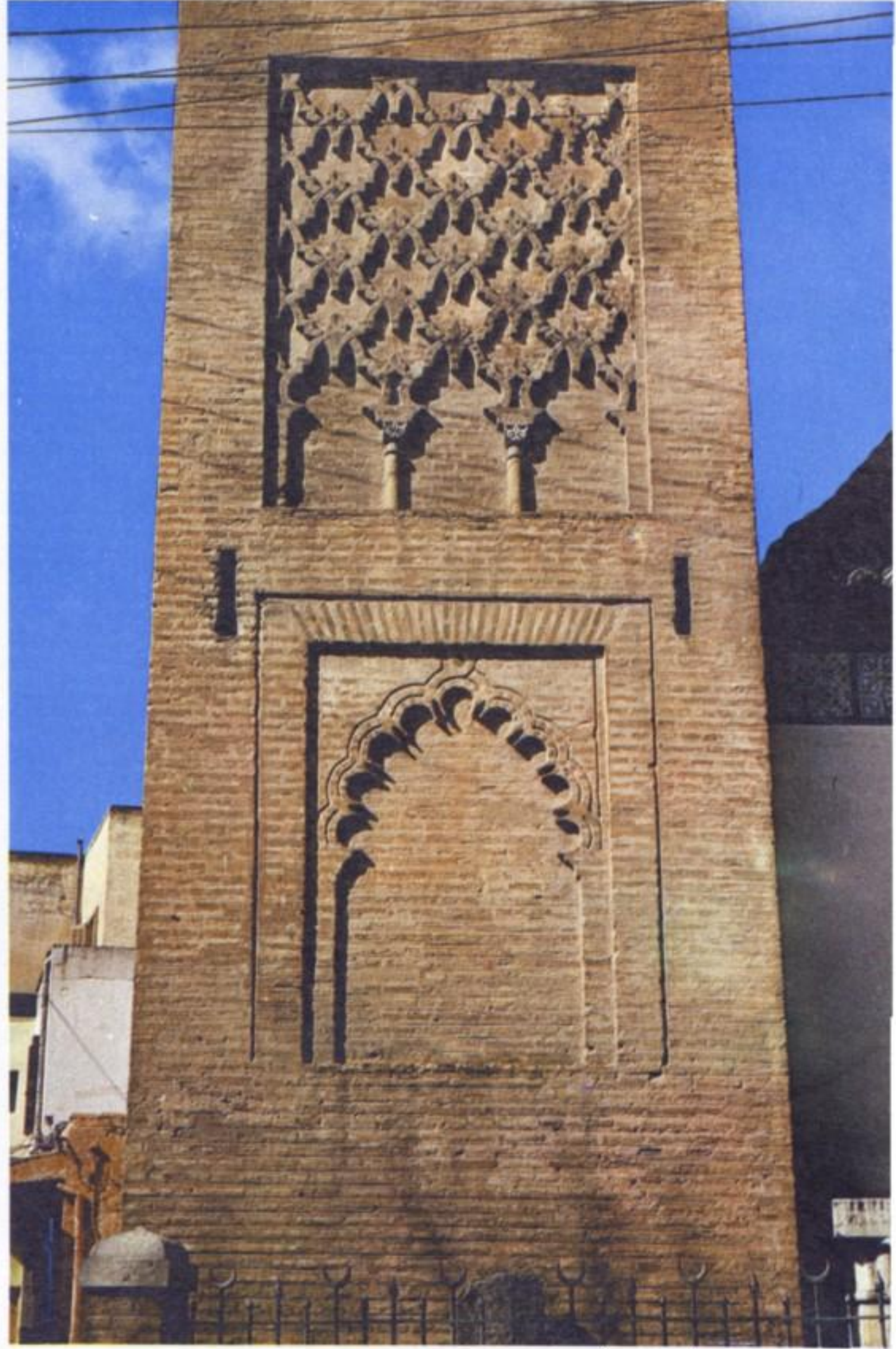
وفي القرن التاسع كان سكان المغرب
يخضعون إلى ثلاثة أنواع من الحكم : الادريسيين
في فاس ، العباسيين في القيروان ، الرستميين
في تيهرت (بالقرب من تيارت الحالية) .
لقد وفد ابن رستم إلى الجزائر من بلاد
الفرس ، فاختره المحاربون وطبقة النبلاء البربر
الذين اتبعوا الخوارج في معتقدتهم قائداً لهم .
فالمذهب الاباضي يسوى بين المسلمين العرب وغير
العرب ، وهذا ما استحسسه البربر الذين كانوا
حديثي عهد بالاسلام ، ويأمر بالتقشف والزهد

في العيش والسكن ، وهذا ما يعنينا بالدرجة الأولى ، وبذلك كان يتجاوب مع مزاجهم الكريم والمتشرف في آن واحد . وكل واحد يعرف قصة الامام ابن رستم الذي كان عليه أن يستقبل وفداً أجنبياً جاء لزيارته وتقديم الهدايا له . فقد كان جاثماً على سقف بيته يضع بنفسه الملائح الذي يقدمه له عبده بعد أن يعجنه . فرمم السقف ثم حيا ضيوفه ، وذهب يغسل يديه ويبدل لباسه ، ثم استقبلهم في منتهى البساطة .

إن هذا الميل إلى التشرف والعدالة أيضاً قد برهنت عليه الجزائر في جميع العصور . فهو لم يكن يتجلى في الميادين الدينية فحسب ولكن في الميادين الأخرى أيضاً (لم تكن الدوناطية في الجزائر الرومانية هي المذهب المسيحي الوحيد الذي يمتاز بالصرامة) . ولنذكر في الميدان السياسي والاجتماعي ، ثورة الأهالي التي أفلقت المختلين



ملائح في اسدراتن



↑ صومعة مسجد المنصورة الضخم

الأجانب . فقد كانت هذه الثورة ، ثورة الفلاحين البربر في الجزائر ، تمتاز بطابع المساواة .

وفي القرن العاشر الميلادي كانت الجزائر المسلمة قد احتفظت بقادتها المحليين الذين خلدوا - بالتحالف مع خلفائهم في بغداد وفي القيروان - الممالك التي كونها العرب . وقد لجأ بنو رستم ، بعد هزيمتهم في تيهرت ، إلى « إسدراتن » بالقرب من ورقلة ، بينما قام بنو حماد والزيريون في « أشير » وقلعة بني حماد وبجاية بإنشاء قصورهم ومدنهم الخاصة . وقد تمت دراسات وافرة في تاريخ قلعة بني حماد ، تشيد بازدهارها خلال القرن الحادي عشر بأكمله . وقد نجحت هذه العاصمة الجديدة لأفريقيا الشمالية بازدهارها في إخفاء القيروان التي كانت تشرف على الانحطاط .

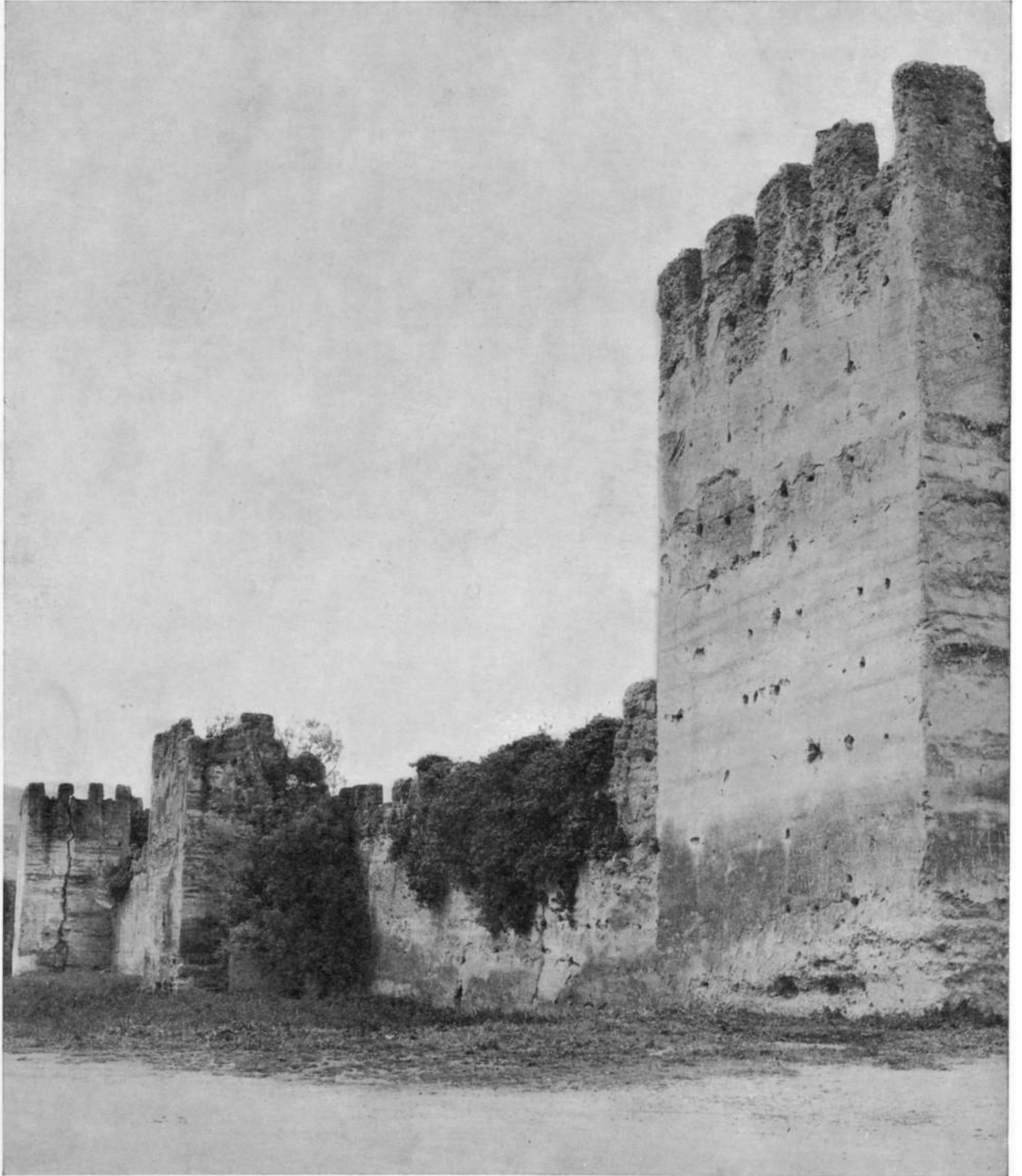
وقال ابن خلدون في شأنها ما معناه : « إنها لم تلبث ، أي قلعة بني حماد ، أن بلغت قمة الرخاء . فكان سكانها يزدادون بصورة سريعة ، وكانت محط الوفود ، من أصحاب الحرف والطلبية ، تيممها من أقصى البلدان ومن أطراف المملكة » .

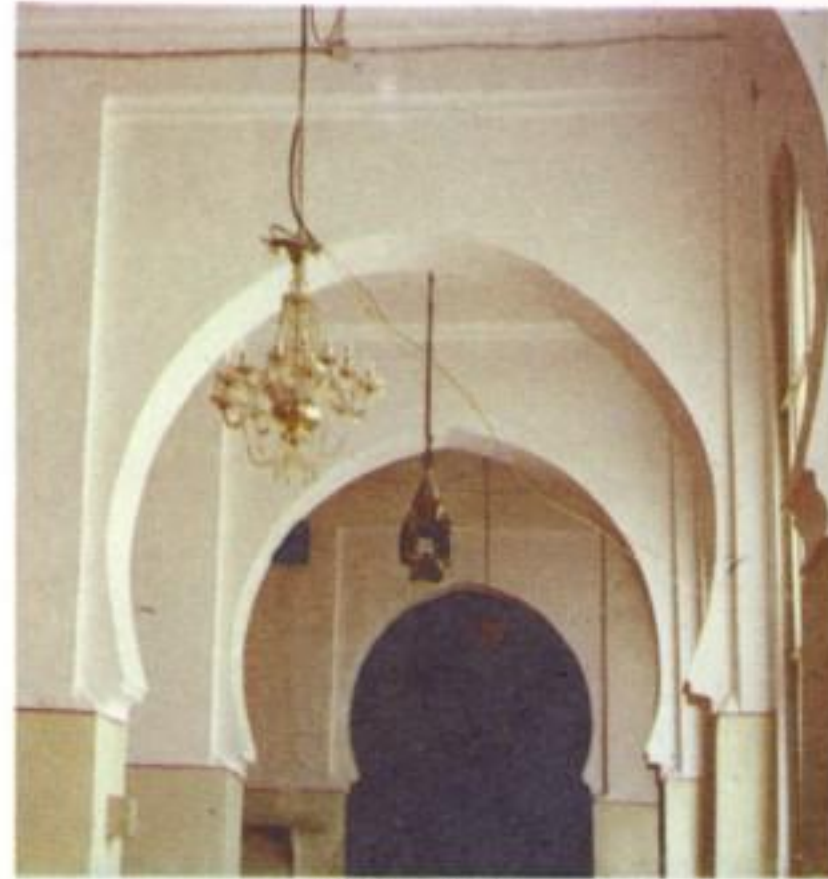
لقد كانت الزخرفة الهندسية ، مثل الأقواس والملاط المنحوت والقاشاني الأزرق والأبيض (في شكل صليب أو نجمة ذات ثمانية فروع) موجودة في قلعة بني حماد قبل قصر الحمراء بثلاثمائة سنة . وقد ثبت أنها « من صنع محلي » .

كانت هذه القلعة مثثة الشكل تزينها عدة أبواب محصنة ، وتشتمل على قصور عظيمة رشيقة

في هذا الرسم القديم لتلمسان يساهم الفكر بقسط كبير إلا أن الأبراج المربعة ، الكثيرة تكشف عن تحصينات عهد مقر المرينيين







↑ سيدي إبراهيم (تلمسان)



مئذنة المنصورة

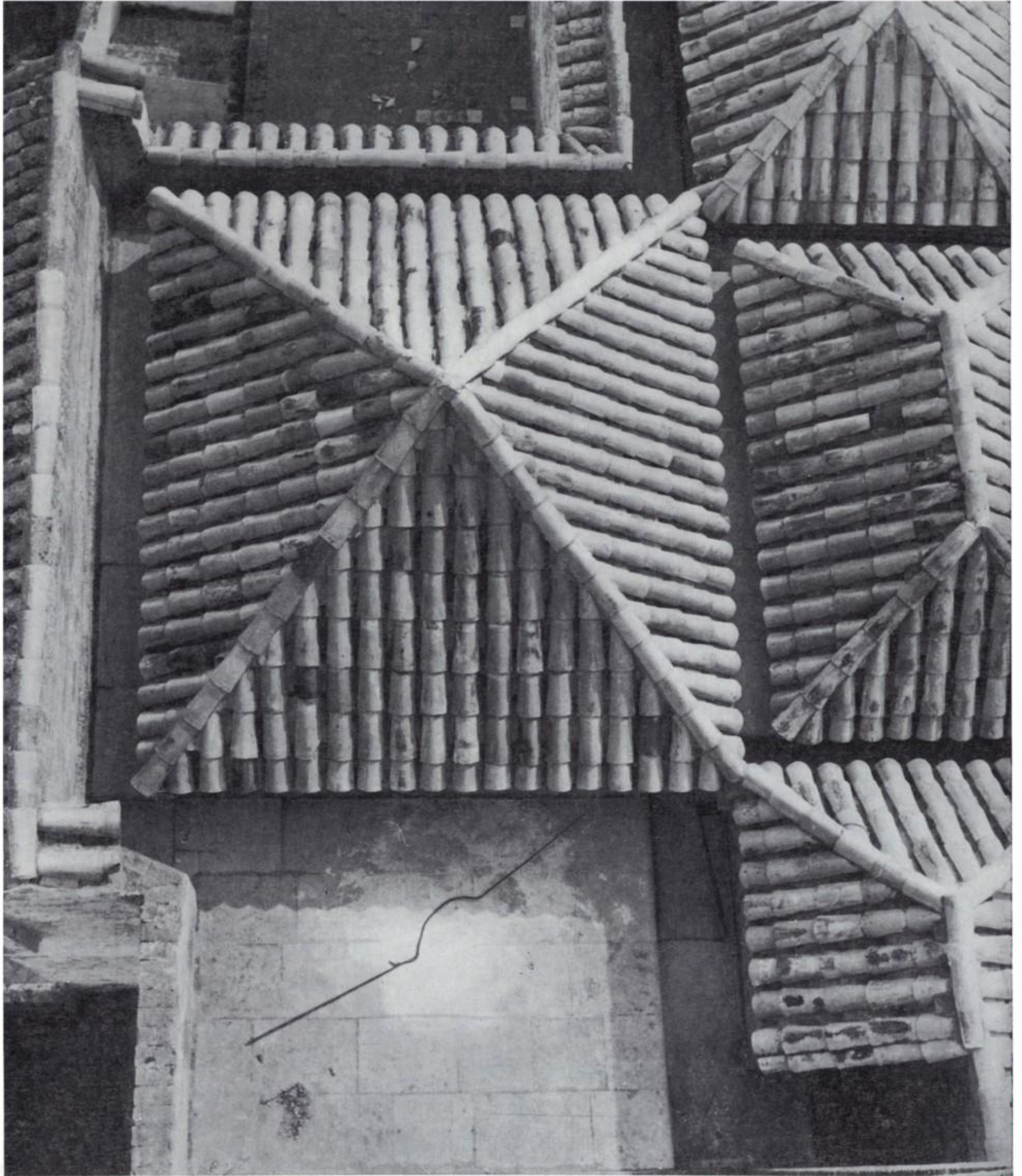


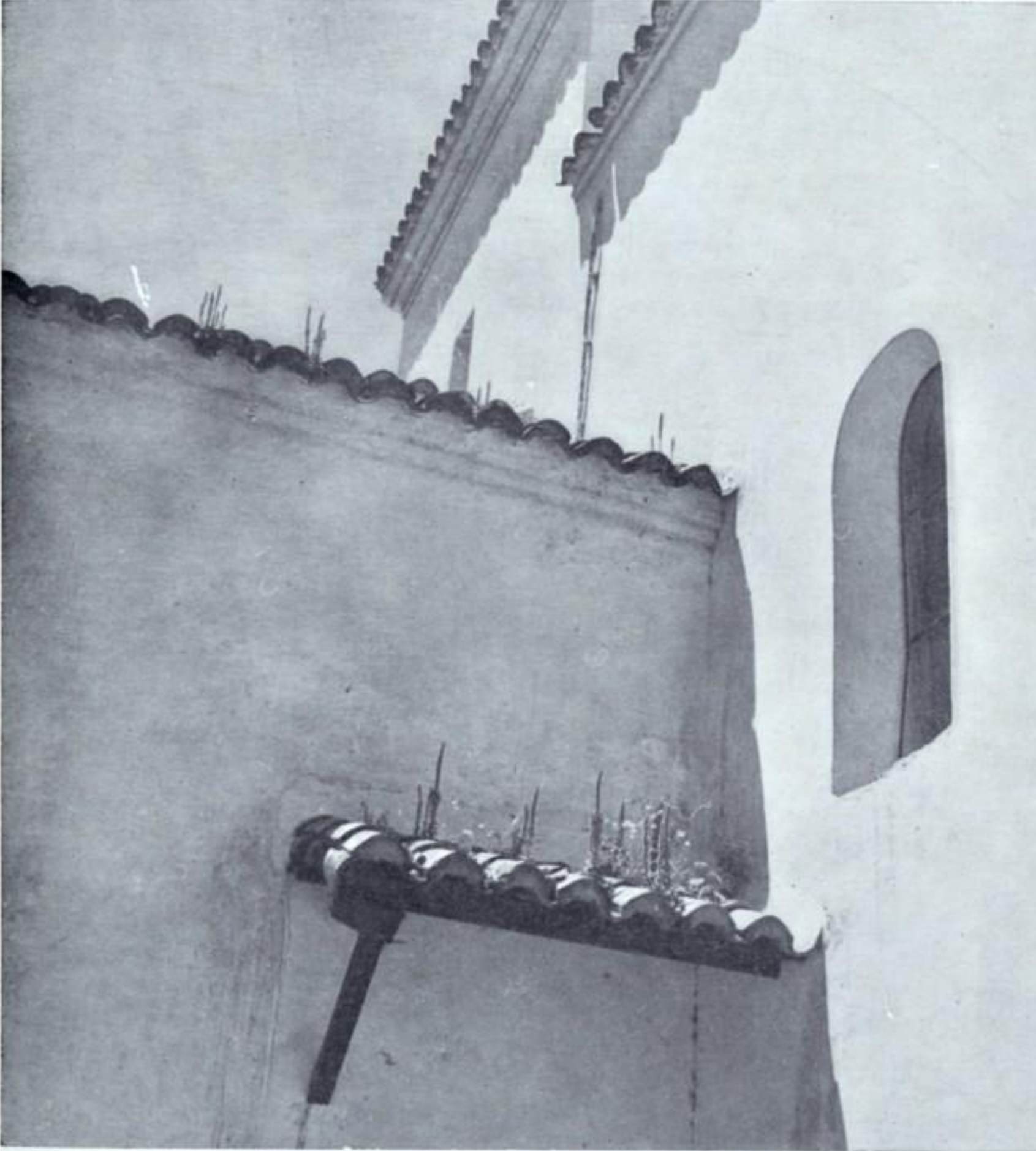
↑ صفاء القوس ، روعة ، وفن دون تزويق سيدي إبراهيم يرجع إلى عهد مجيد تجاهله تاريخ المرينيين

البنيان من بينها « قصر البحر » برسمه المائي الهائل . غير أنه لم يبق من كل ذلك إلا الأطلال والصومعة التي لا تزال قائمة ، وقصر المنار بواجهته التي تشقها خطوط كبيرة على غرار قصور بلاد ما بين النهرين ، وبعض بقايا السور ، التي لم يتناولها البحث بأكملها وحيث لا تزال أجمل الصور بادية .

إذن ، كانت هذه المدينة المحصنة مهداً للفن والعقل والتسامح أيضاً ، إذ كان يوجد بها حي مسيحي . وكان من الطبيعي أن يميل هؤلاء الأمراء ، سكان البلاد الذين تولوا شؤون الحكم







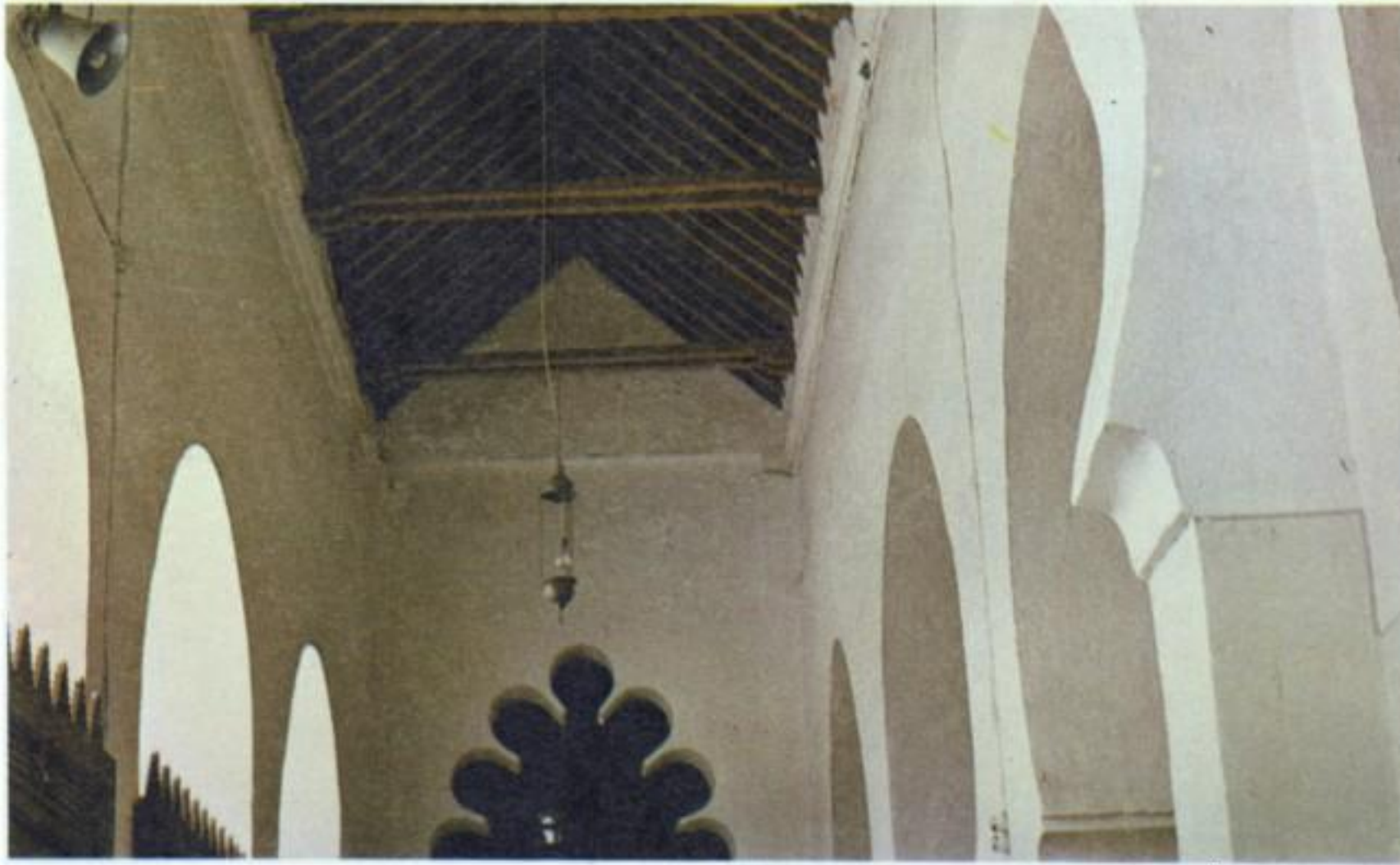
واجهة الجامع الكبير

مدرسة سيدي بومدين ، تقوم بمهمتها منذ أجيال
هدوء وبياض وبساطة جديرة ←

في هذه الأرض الفسيحة ، إلى تلك الابهة وتلك
العظمة . لقد أقاموا الدليل على أن الافراط
و « الاعجاز » في الهندسة المعمارية في الجزائر لم
يكن أبداً وليد جهلهم بالتقنيات أو عدم حذاقتهم .
قلعة بني حماد ، التي هي من إبداع الأمراء
سكان البلاد ، كانت في طليعة التقدم التقني
والفني في القرن الحادي عشر .

لقد واصلت دولة بني حماد الابداع الذي
خلفته في القلعة في بجاية ، عاصمتها الثانية .
وبعد الغزو الاسباني العابر ثم غزو الأتراك لم يبق
من بجاية بني حماد إلا الباب الكبير المحصن ،
الذي يكاد لم يمسه شيء ، والسور الذي خرّمته
يد الدهر ، وبعض القبور . لكن الناس لا يزالون
يرددون الأسماء الشاعرية لما حققه بنو حماد في
بجاية ، ومن جملة ذلك قصر اللؤلؤة الذي يكون
قد بهر الزوار الأجانب من أوروبا إن كان
هناك زوار .

سبق أن قلنا إن بني رستم لجأوا إلى
الصحراء حيث أقاموا باسدراتن بالقرب من ورقلة .
وبوصفهم أصحاب صنعة يمتازون بالنشاط
والثقافة فانهم قد جعلوا من مدينتهم مفترق أفكار
في نفس الوقت الذي عملوا فيه على ازدهارها المادي
بفضل حقولهم التي كانت تشمل على 400.000
نخلة وموقعهم في مركز المبادلات في آن واحد .



داخل الجامع الكبير ، رواق

صنعه يخالف هدف التواضع المنشود . وتلك الزخرفة التي يرجع عهدها إلى القرون الغابرة لا تزال زخرفة « حديثة » و « فناً دائماً » خلفه أولئك الذين لم يعرفوا « الموضة » ولكنهم لا يبلون أبداً .

لقد استولى المرابطون ، الذين ربما كانوا يشبهون في الهياة إلى حد بعيد من نسميهم اليوم بالطوارق ، على المغرب الأقصى حيث تمركزوا من القرن الحادي عشر إلى القرن الثاني عشر ، فخلقوا به الحصون والمساجد ، وعلى الجزائر

لقد كانت تسمى إسدراثن بالمدينة « المجيدة » ، ذلك أن بني رستم ، مثلهم كمثل بني حماد ، لم يكونوا يجهلون دقائق الفن الاسلامي في عهدهم . ولئن كان التقشف الخوارجي هو القاعدة الصارمة بالنسبة إليهم فان رخاءهم كان يحدو بهم إلى الأساليب الشعرية . وقد تم اكتشاف منازل واسعة وجميلة تحتوي على فناء محاط بالأروقة فيما تبقى من آثار إسدراثن ، التي أصبحت شبه مغطاة بالرمال . وهي بمثابة قاعات كبرى تقوم في أقصاها أنواع من المقصورات المعزولة عن باقي الغرفة بقوس من الأعمدة البارزة . والتقنية المستعملة في هذا البنيان (أي العارضات المنشورة من خشب النخيل بصورة تمكنها من تحمل أقصى ما يمكن من الثقل) تخول هذه القاعات عرضاً محدوداً وطولاً غير محدود . وقد كان نمط الحياة يتلاءم كل التلاؤم مع هذا الترتيب . فالغرف الكبيرة المستطيلة ، التي نجدها في الهندسة المعمارية « الأهلية » بالجزائر (كالقصبية مثلاً) قد أقيمت بكل صواب على هذا الشكل بحيث تكون سهلة التقسيم إلى عدة « أجواء » . إن ملاط إسدراثن ، الذي كان من شأن التقشف الديني ألا يسمح به يتميز بطابعه الخاص وبالاعتدال والتنوع في آن واحد بالرغم من أن الاعتدال الذي روعي في



سطوح سيدي الحلوي

وفي القرن الرابع عشر استولى ملوك بني مرين القادمين من فاس على مدينة تلمسان المنهوكة القوى بعد أن حاصروها مدة ثمانين سنوات من قلعتهن المحصنة بمحلة المنصورة الواقعة على أبواب المدينة . وقد حاول بنو مرين أن يساهموا في مجد الهندسة المعمارية عوض أن يأمرؤا بهدم المدينة . وهكذا عاد الفن الأندلسي إلى أصله بعد أن ازدهر خارج الحدود الاسبانية . فتولى بنو مرين تشييد مسجد حول ضريح سيدي بومدين

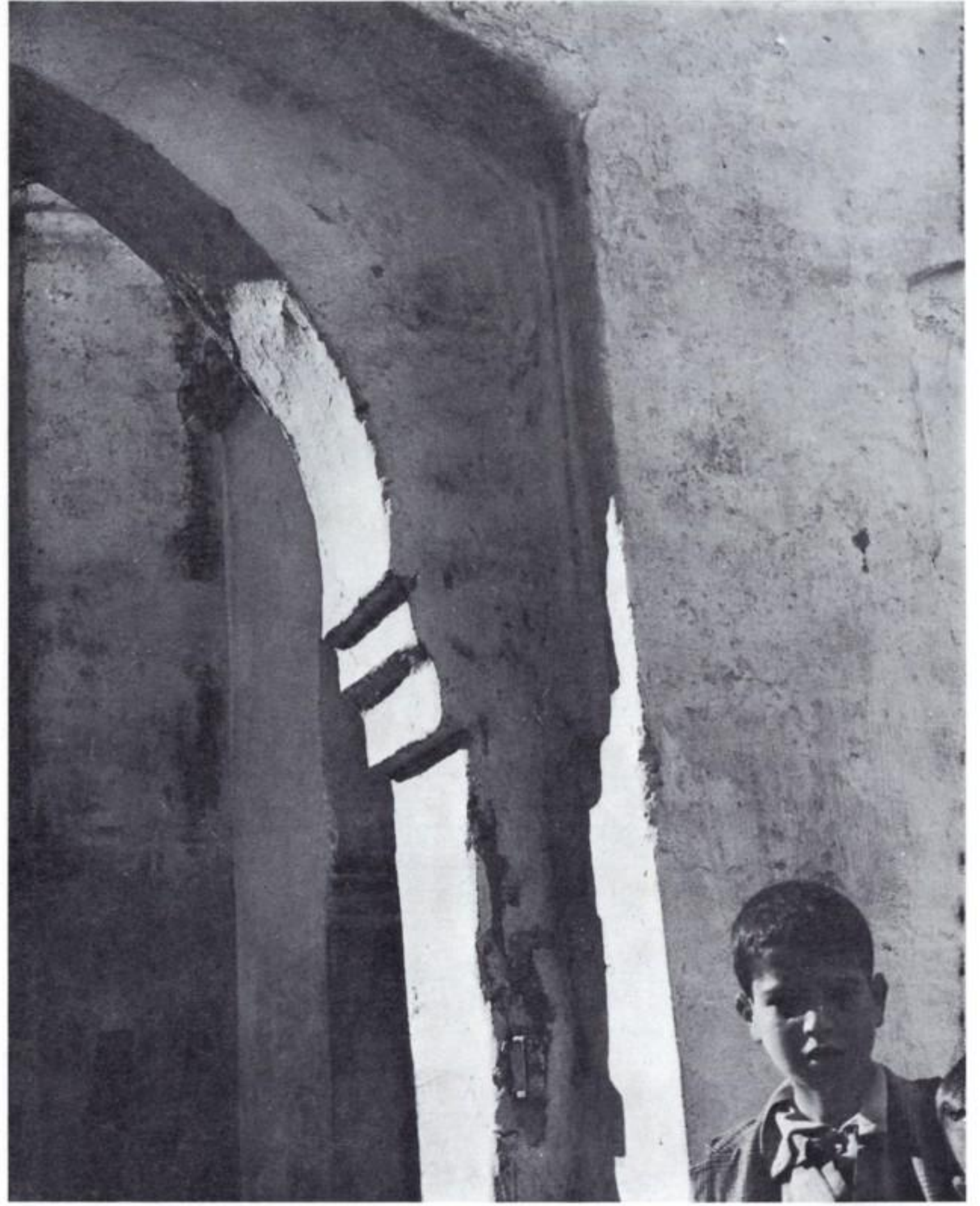
حيث خلفوا أروع مساجد ذلك العهد التي اشتهرت إلى درجة أنه أصبح من الصعب أن نضيف شيئاً إلى كل ما كتب وقيل عنها ، ولا سيما الجامع الكبير بالعاصمة ومسجد ندرومة وخاصة مسجد تلمسان . فصور هذه المساجد أفصح بكثير من وصف ما تمتاز به من ثراء الهندسة المعمارية . وفي تلمسان أيضاً نجد المسجد الذي بناه الموحدون في القرن الثالث عشر ، وهو مسجد سيدي بلحسان الذي أصبح متحفاً للآثار القديمة .



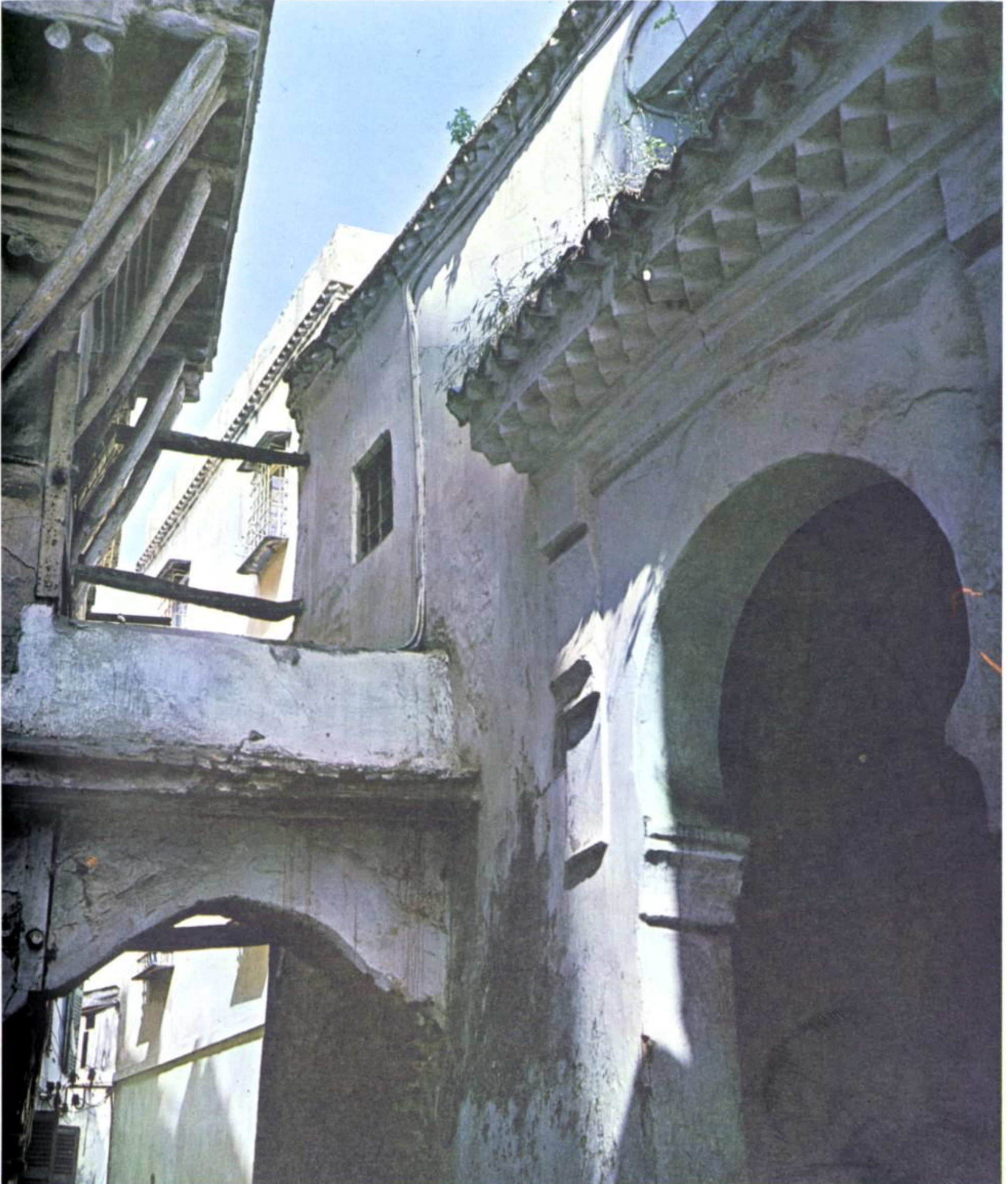
سطوح ندرومة

منظر يكشف عن ابداع الانسان القديم
ويشكل وجه الطفل الجديد الذي تنقل إليه
الهندسة المعمارية الثقافة الحية التي لم يستطع أي
شيء أن يأتي عليها

وكل ما يتبعه من مرافق ، ثم تشييد مدرسة
أصبحت تشكل مع المسجد المذكور تحف المدينة
بل تحف هذه القرية الصغيرة التي تقع بجنبها
حيث يوجد الضريح . كما ترك لنا بنو مرين
صومعة سيدي العلوي ومثذنة المسجد المرابطي
الكبير . إنها شعلة باهرة حقاً ولكنها شعلة .
ويستخلص من كل ذلك علامة تدل على الارادة
الخالصة التي تحمل الطابع الوطني . فمسجد
سيدي إبراهيم الذي بني سنة (1361 م) والذي
هو أحدث المساجد الشهيرة في ذلك العهد
بتلمسان قد احتفظ بالنسب الهندسية المرينية ولكنه
تجرد من ترفها ، من الترف الخارق ، لتحل
محله الصرامة الساحرة الخلابه .

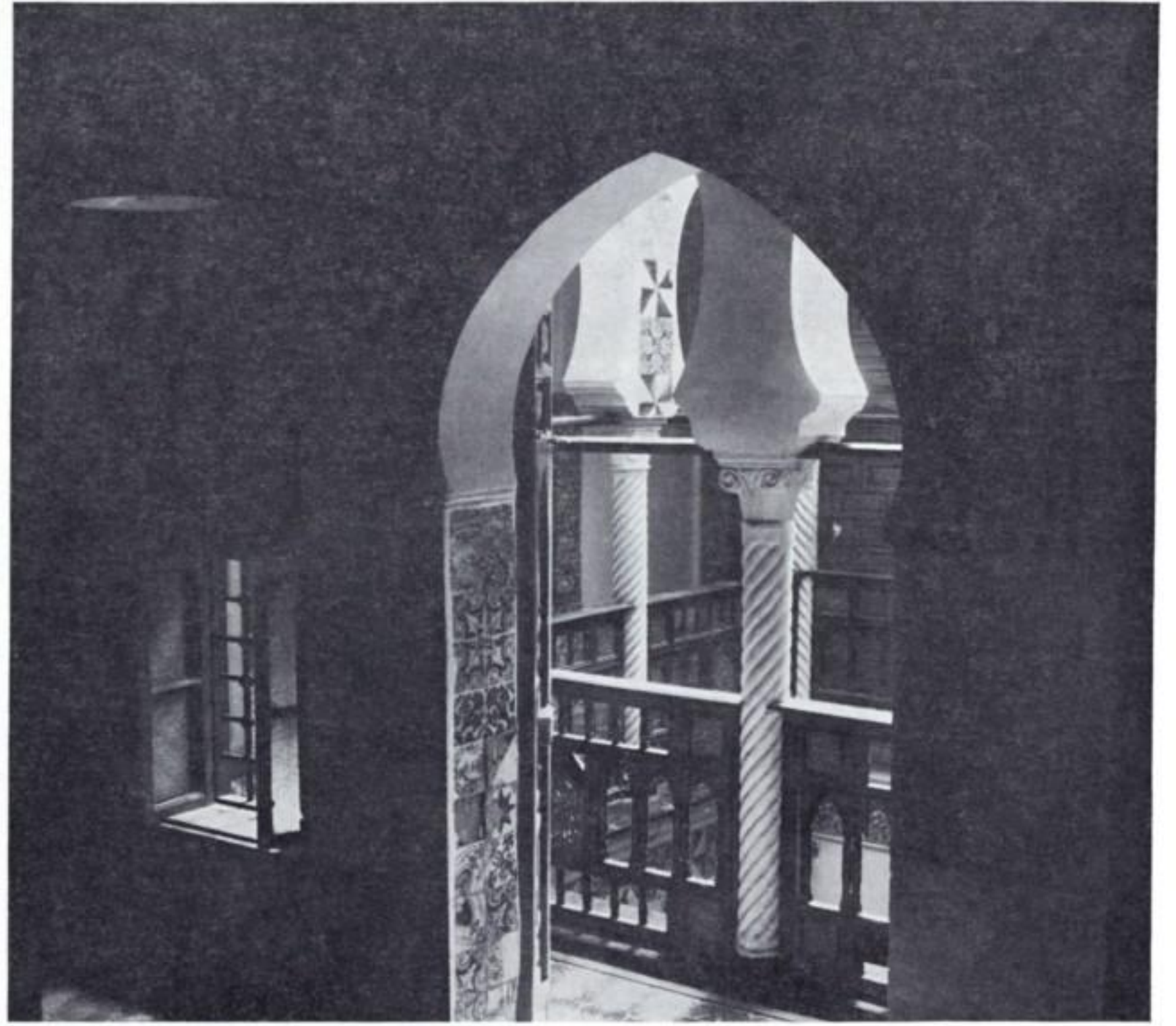
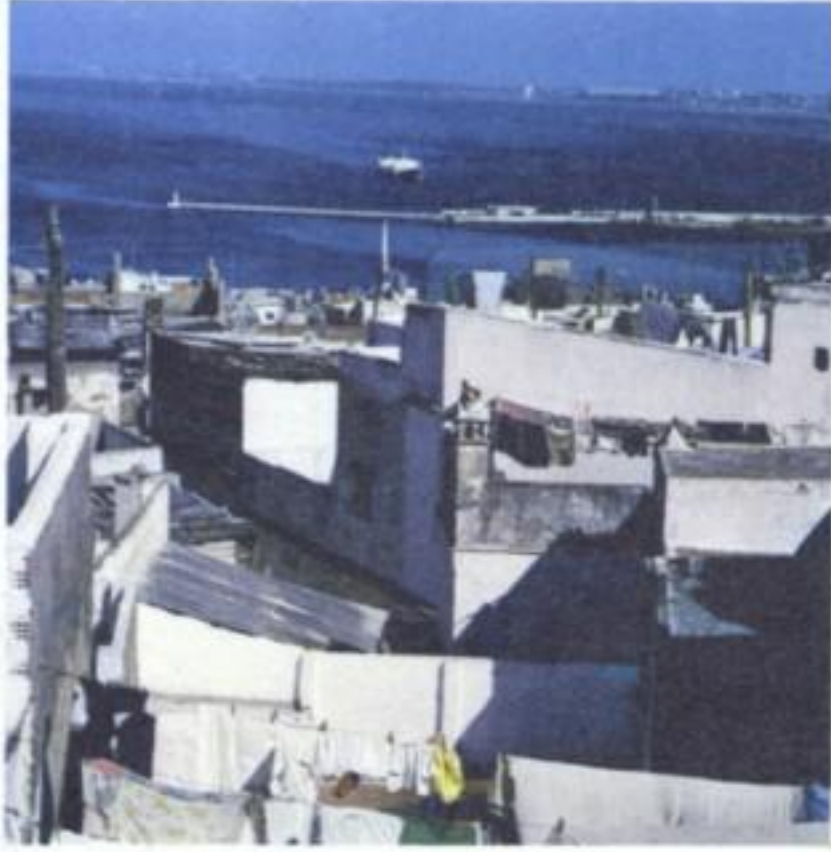


رسوم قديمة للجزائر في عهد الأتراك



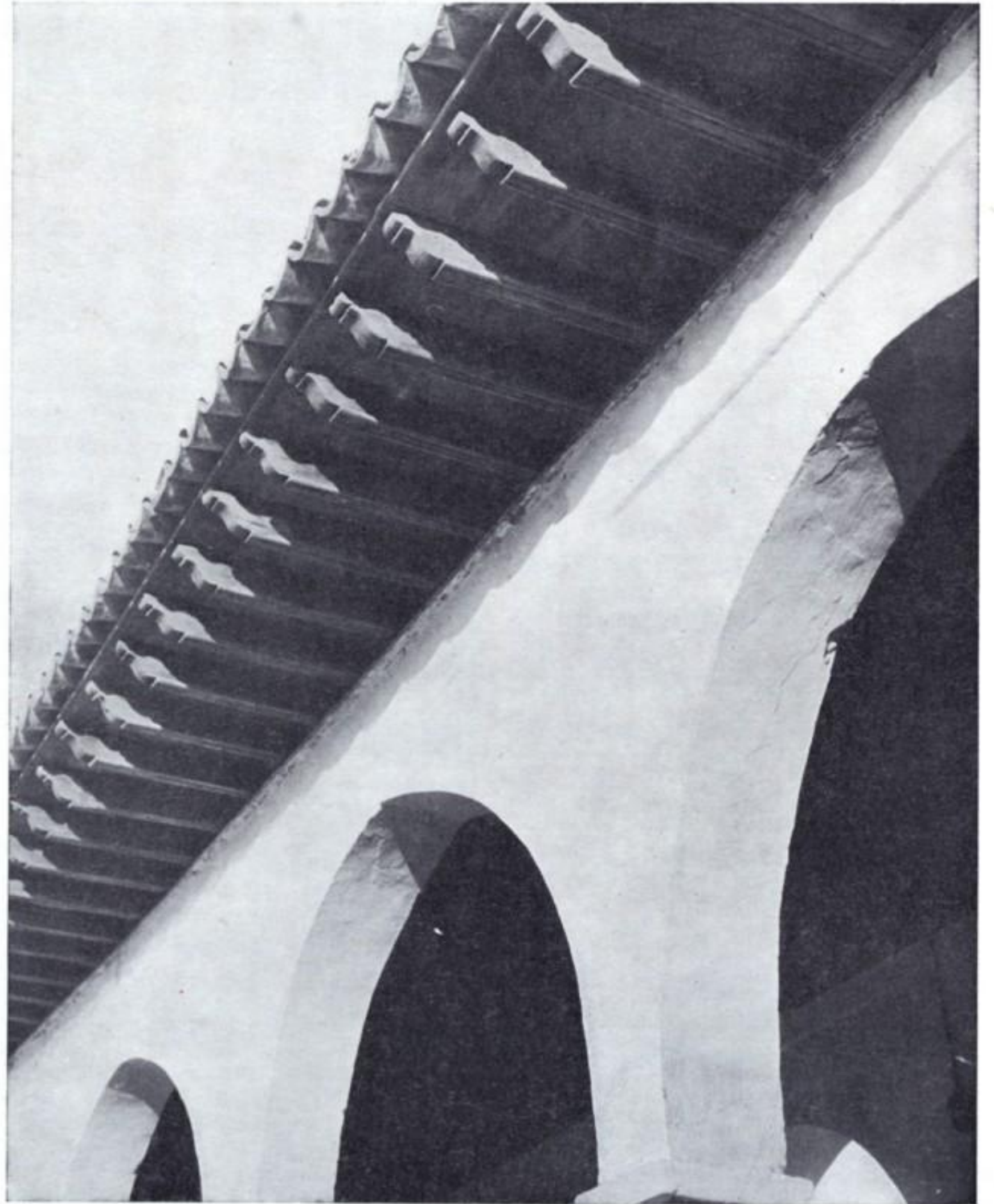
قصة العاصمة : شارع صغير

« مثل درج ضخم ، ينحدر نحو البحر حيث نرى
↓ الفضاء والبحر... »



ساحة في القصبة

إن المظهر الدائم لمساجد ذلك العصر يتجلى بكل بساطة في هيكلها . فهي تتكون ، كما تبين ذلك صورنا ، من عارضات متوازية مخرمة ، وفناء وصومعة . وهناك بعض المساجد التي قد تكون أقدم من هذه مثل مسجد تنس ، مغطاة بسطوح ولكنها حافظت مع ذلك على العارضات . وهذه العارضات تختلف ارتفاعاً وطولاً (لتمكن من اختلاف سعة المساجد) ولكنها لا تختلف عرضاً ، وتتجاوب مع قطع الهيكل ، وهذا هو المبدأ الذي تعتمد عليه الغرف الطويلة في المنازل . فقطع الهيكل الخشبي تقترب من بعضها بثلاثين إلى خمسين سنتيمتراً ، فتكون السقف وتحمل القرميد . وهي تعتمد بأقصى أطرافها على الجدران . وإذا أريد بناء قاعة كبرى فإن هذه القطع الخشبية تحوف على شكل أقواس أو أروقة ، وهذا في حالة بناء سطوح . أما إذا كان الأمر يتعلق بالقرميد ، كما هو الشأن في مساجد المرابطين وبنو مرين فإن ترتيب القطع الخشبية التي تحمله لا يكون أفقياً ولكن زاوياً ، ونعني بذلك الزاوية التي يكونها منحدر القرميد . ومهما يكن من أمر فإن هذه الزاوية تعتمد هي الأخرى على جدران على شكل أروقة كما هو الشأن بالنسبة إلى السطوح . وتتكون هذه الزاوية من ضلعي المثلث النظري الذي تتكون



أقواس ومشرفة بتمصر داي الجزائر

الأروقة العليا لقصر الداوي في الجزائر
في القصبة العليا ، نشرف على المدينة وعلى البرج
التركي ومنار « البحرية »



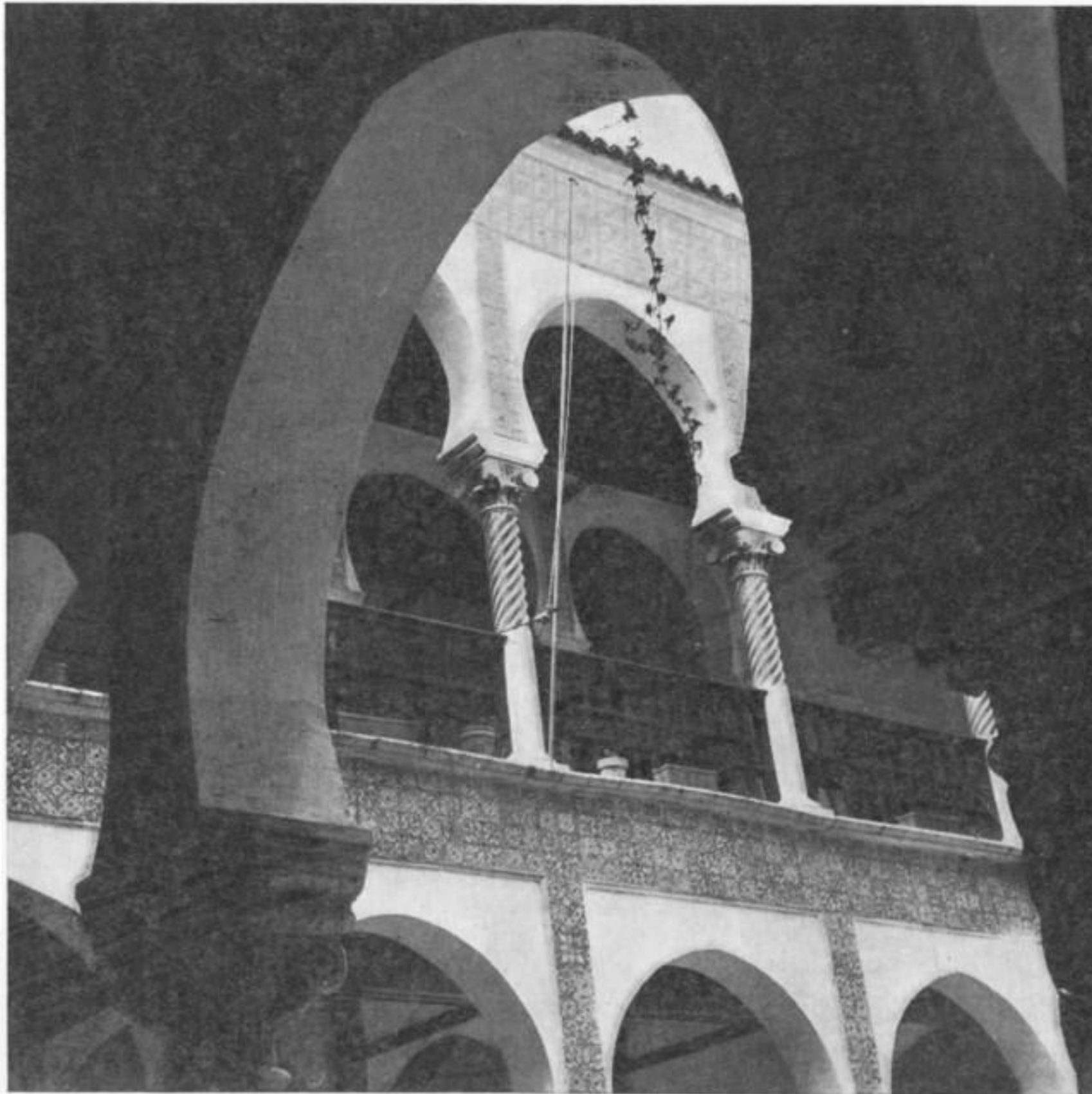
قاعدته من المساحة الموجودة بين رواق وآخر ، وهو مثلث يكاد يكون متساوي الأضلاع . وهكذا نرى أن استعمال الهيكل الخشبي تحت السطوح ونظام السقوف مع وجود الزوايا المذكورة ، يعطيان نفس المتسع بين الأروقة لأن الهندسة كانت تعتمد لترك هذا المتسع ، على مقدار طاقة القطعة الواحدة من الخشب بالقياس إلى الثقل الذي تحمله . (انظر الرسم) .

وبفضل الجهود ، التي لم تات عرضاً من دون شك ، لأن الحالة الثقافية في ذلك العهد كانت تسمح بالبحث عن الهياكل التي تمكن من عبور أكبر فضاء ممكن ، جاء هذا المتسع على صورة مرضية ، كافياً لسجود المصلي .

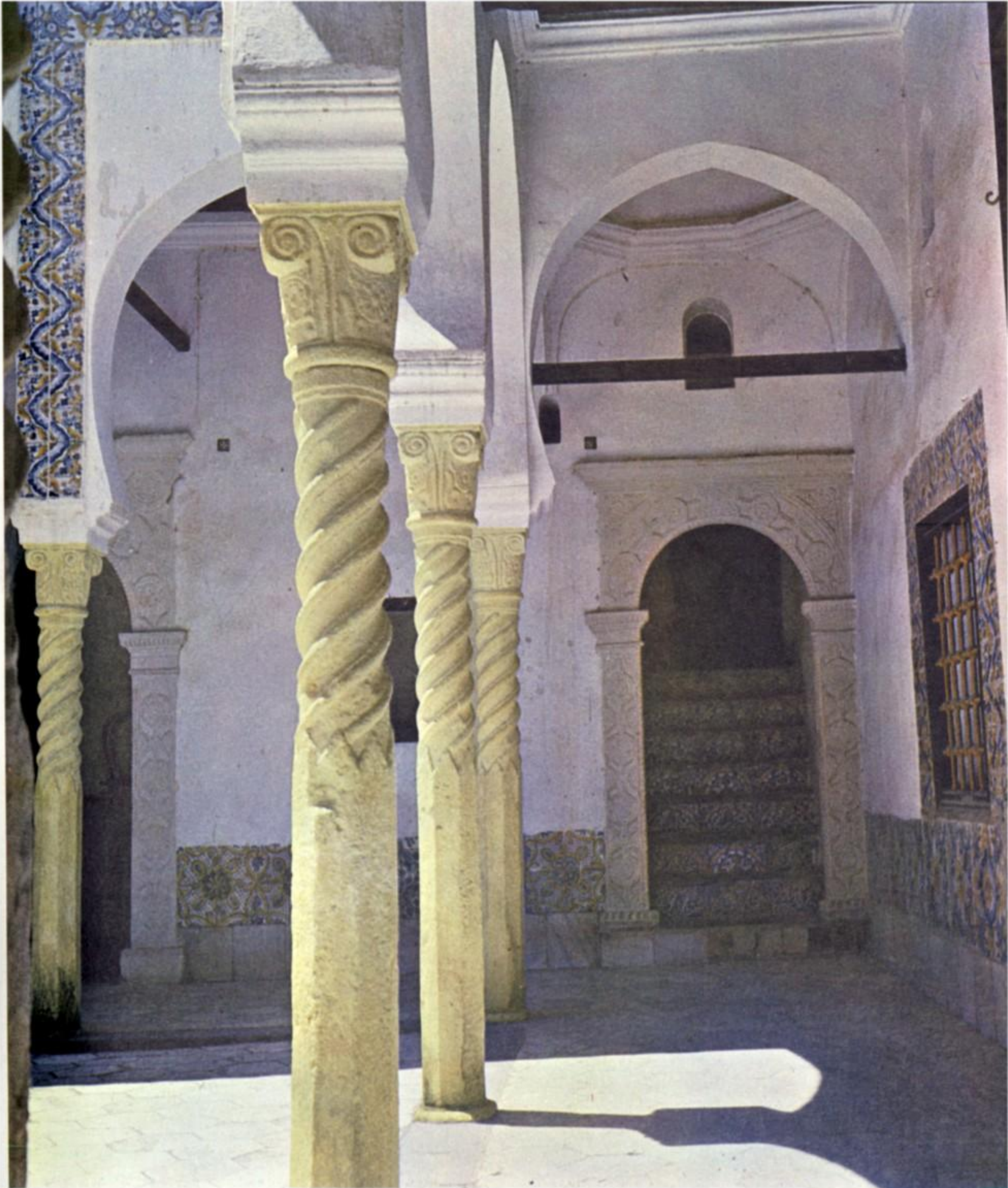
وفي هذا المضمار يمكن الاحتفاظ بمجموعتين من تصاميم المساجد في الجزائر في هذا العصر : التصاميم القديمة التي تنسب إلى الشرق ، والتي تكون فيها العارضات موازية لجدار القبلة حيث يوجد المحراب ، مثل مساجد تنس وسيدي عقبة ومسجد المدينة المنورة . ونجد هذا الترتيب أيضاً في سوريا ومصر والعربية السعودية .

والتصاميم التي تكون بها العارضات مصطفة في اتجاه القبلة . وهذه المجموعة الأخيرة هي من النوع الأندلسي مثل المسجد الكبير بقرطبة . والجزائر تملك أكثر الأمثلة لذلك في تلمسان . وبما أن مسجد القيروان الكبير قد بني على هذا المنوال فلا ينبغي أن نحدد تاريخ المساجد بصورة مشددة بحسب ترتيب عارضاتها .

إن الصومعات المزينة بالخزف الملون ، والزخرفة التي تبرز الخطوط الرئيسية للبناء أو إطارات الأبواب ، والنوافذ والمحراب والملاط المصقول وخشب الأرز المنقوش ، كل ذلك قد وصفه العلماء والرحال كثيراً وفي كل العصور . فهذه المساجد قد اشتهرت منذ تأسيسها .



حوش



زخرفة حول أطر الشبايبك

مقبرة الأميرات



بالعاصمة مثال حي لذلك . وعليه فان جميع المساجد التي تمتاز بهذه القباب الضخمة ذات الصحن الوحيد ، التي نجدها في الجزائر قد تأثرت بالأسلوب العثماني ، وإن كانت لم تبين في العهد التركي .

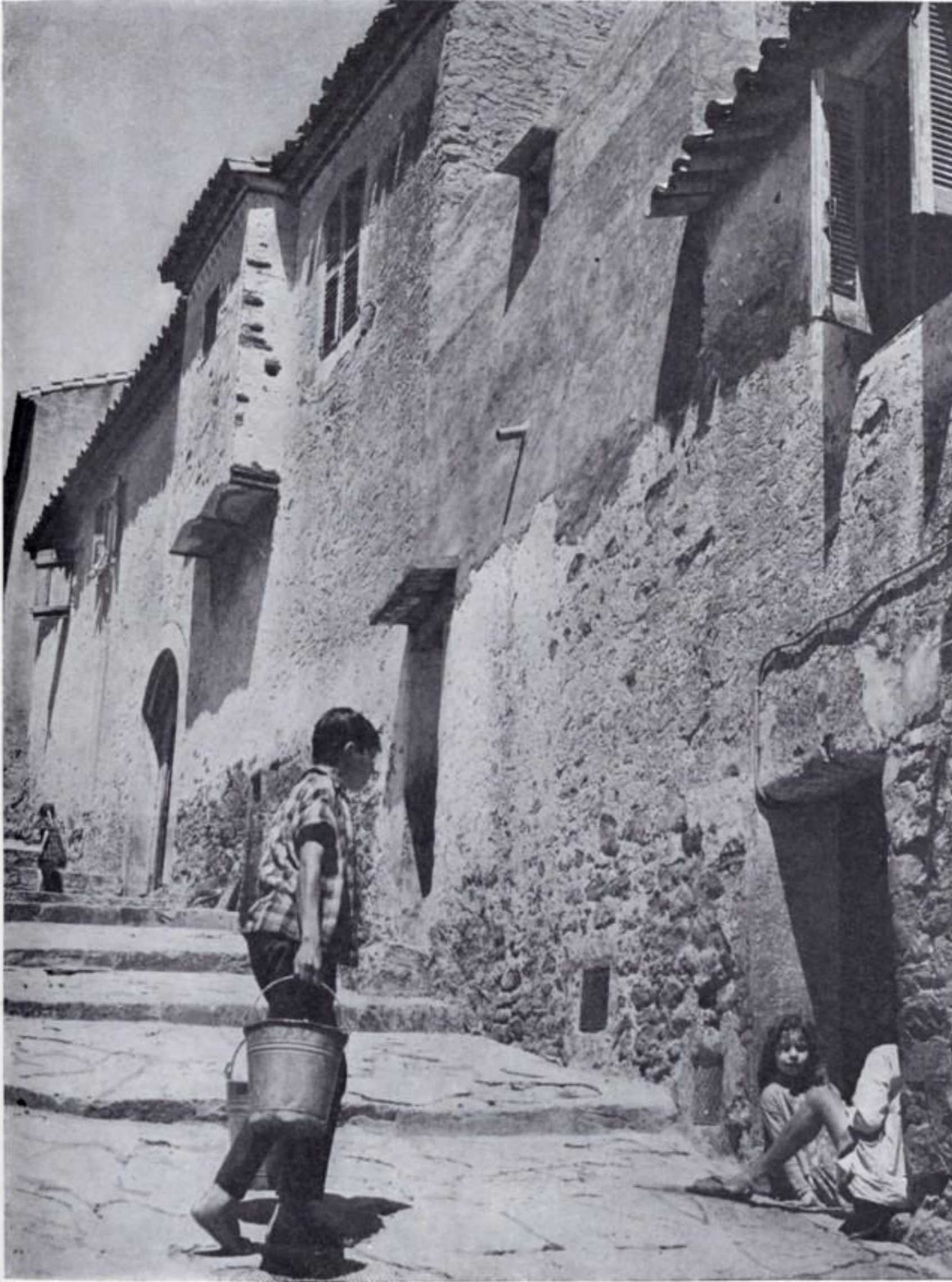
إن المنازل الملكية التي خلفتها لنا العصور ما انفكت تثير الاعجاب بشخصيتها الوطنية القوية . وبهذا الصدد تقدم لنا ثلاث مدن ، على مستويات مختلفة ، أمثلة هامة : القصبه بالعاصمة و « المدينة القديمة » بدلس ومدينة قسنطينة .

فيوت القصبه بالجزائر يرجع تاريخها بالفعل إلى العهد التركي . ومع ذلك فانها لا تشبه



قصبه صغيرة من العهد التركي في دليس

على أن الأسلوب التركي قد ظهر بشدة منذ القرن الخامس عشر في الهندسة المعمارية للمساجد والقصور والبناءات العمومية في الجزائر . وهذا الأسلوب بالنسبة إلى المساجد مستمد مباشرة من الأشكال البيزنطية بالقسنطينية وفي بعض الأحيان (من العقود البيزنطية) . والمساجد من هذا النوع تمتاز بقبة ضخمة فوق صحن واحد يشمل مساحة داخلية واسعة دون أعمدة تضايق النظر . ومما لا شك فيه أن هذا الترتيب أقل جمالا من غيره ولعله أقل تلاؤما ، ولكنه أكثر عظمة . غير أن الزخرفة قد صارت متزنة إن لم تكن منعدمة كما تؤكد ذلك الرغبة الكامنة في الصرامة التي سبق أن قلنا أنها ميزة البلاد نفسها . والجامع الكبير



شارع صغير في دليس

البيت التركي إلا قليلا . فطلاؤها الخارجي يشبه النوع القبائلي أكثر من غيره ، وتلك الأفنية التي يمكن أن نقول أنها موروثه عن الرومان⁽¹⁾ تشبه هي الأخرى الأفنية القبائلية في المدن ، كما أن « المشربية »⁽²⁾ التركية المكونة من الأخشاب ، مبنية بالحجارة ، وليس بها من الخشب إلا الأعمدة المستديرة التي تستند إليها . ونهج القصبة « الذي ليس إلا مكاناً عمومياً للمرور والشراء » (لوكوربيزي) لا يختفي عن تلك الواجهات التي تكونه والتي تكاد تكون عارية تماماً . فالجدران « العمياء »⁽³⁾ (أو التي تبدو عمياء) تقابل جدراناً « عمياء » أخرى شبيهة بها . أما الضوء فيتسلل إلى الغرف من الفناء ، من وسط الدار . على انه في إمكان المرء أن يلاحظ إذا صعد إلى الطابق وجود منافذ ضيقة أو نوافذ صغيرة ، تم تصميمها بصورة محكمة لارضاء الفضول المستتر ، أو على شكل منحرف تماماً في بعض الأحيان للتمكن من رؤية النهج بأكمله وقسم من السماء وشطر من البحر أحياناً .

أما منظر ميناء الجزائر ، أما الفناء ، فانهما يمتدان أمام تلك السطوح المدرجة التي لا يضابق بعضها البعض ، والتي نراها « وكأنها درج هائل يهبط نحو البحر » .

وفي إمكان جميع الأسر التي تسكن داراً واحدة من هذه الديار أن ترتقي إلى تلك السطوح ،

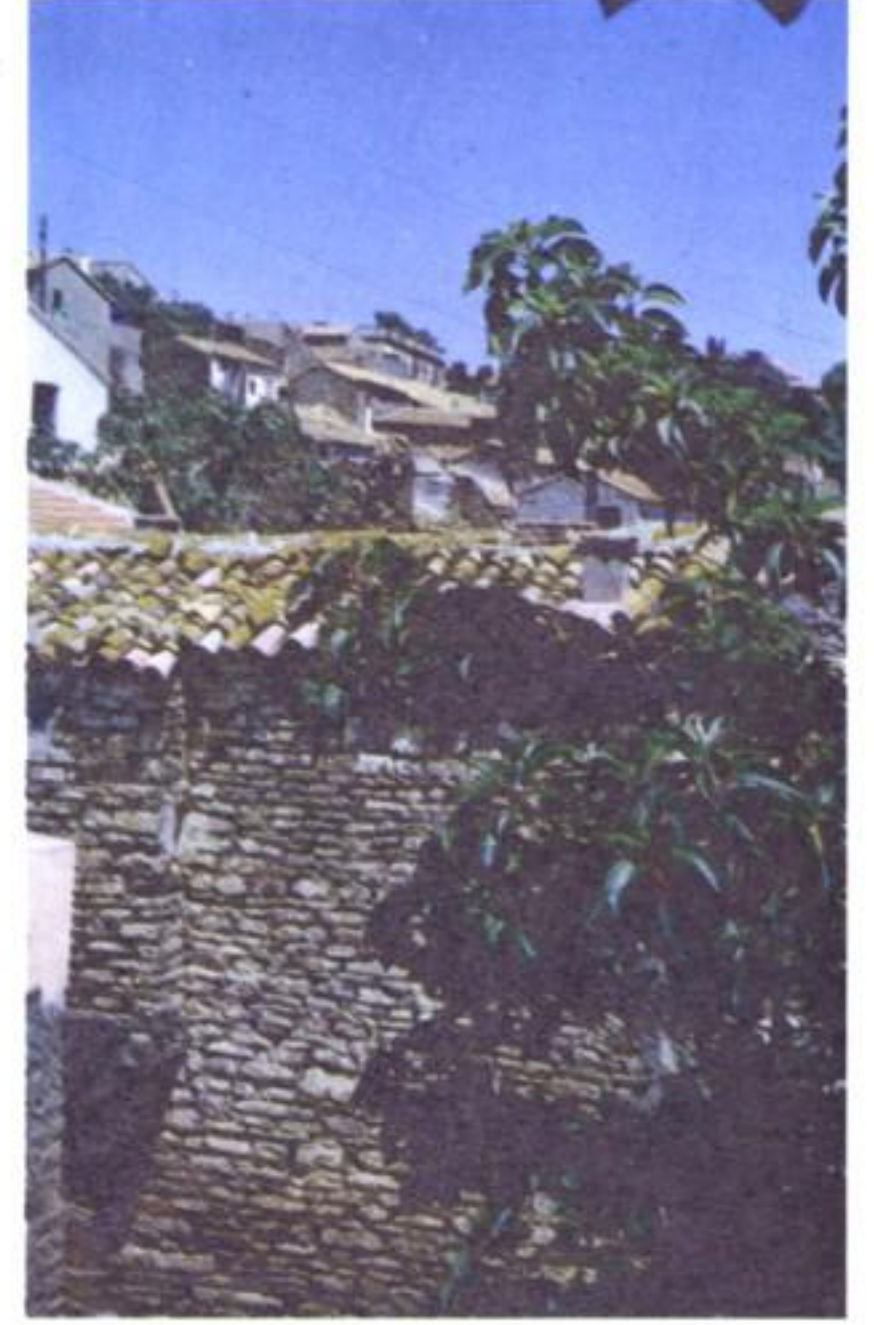
(1) كانت هذه الأفنية ، في الواقع ، مستعملة في الشرق في عهد أقدم الحضارات التي يرجع تاريخها إلى 3.000 سنة قبل الميلاد .

(2) « المشربية » شباك من الخشب يشد إلى النوافذ حتى يتمكن صاحب الدار من الرؤية دون أن يرى .

(3) بدون نوافذ .



باحات تذكرونا بالجزر اليونانية



دلليس



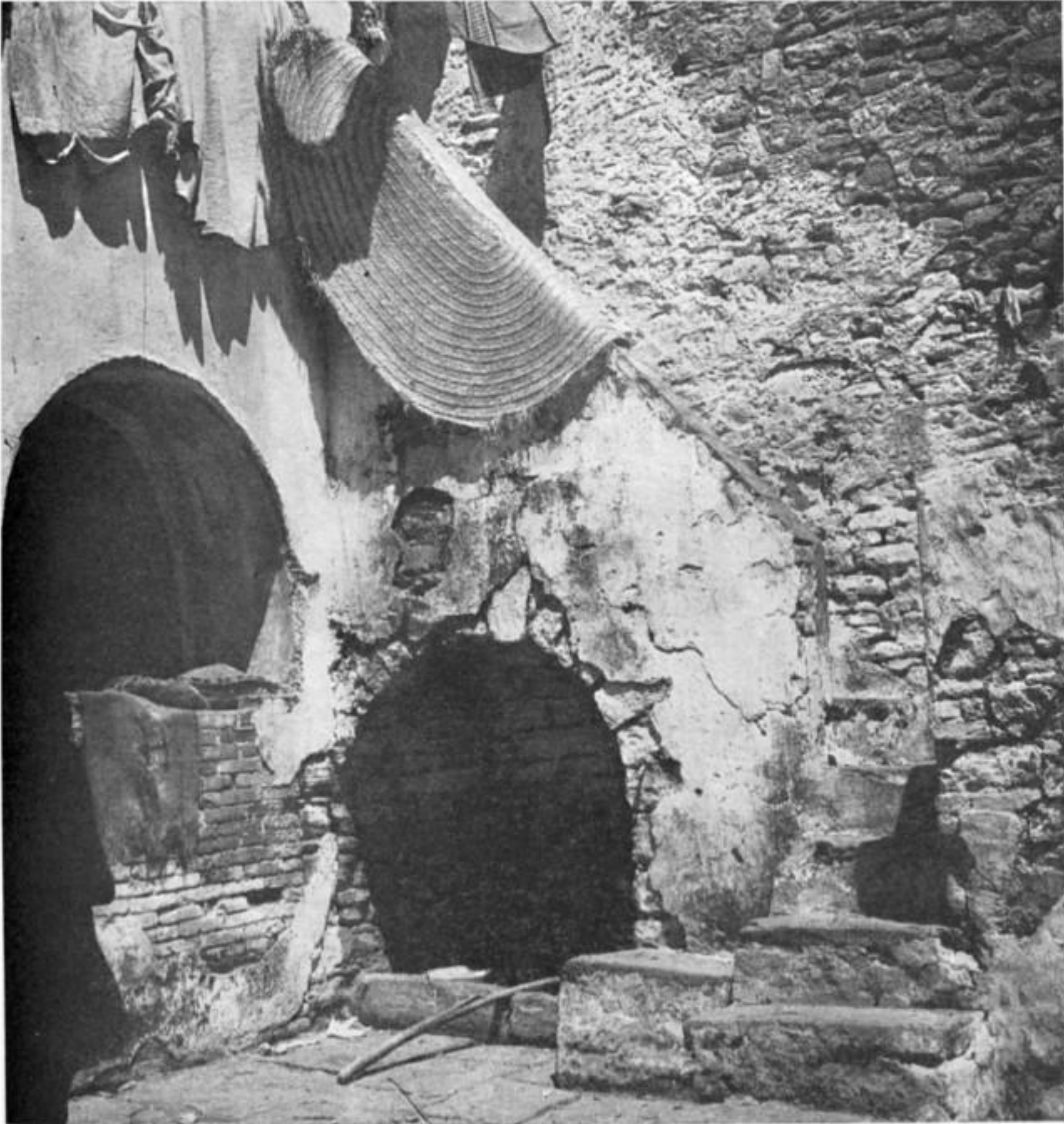
مشربية

حيث تجفف النساء الملابس ، وحيث يقضين المساء بمجرد ما يخفت النور الساطع وتنخفض درجة الحرارة ، يتسامرن ويرعين أبناءهن وبصغين إلى أقاويل المدينة . وهكذا تنقسم المدينة إلى ثلاثة أقسام متميزة : النهج ، أي الممر المحفوظ الذي تتوفر فيه الظلال ، والدار حيث تقيم الأسرة محفوظة من الأنظار التي تنغص حياة الكثير من المدن الأوربية القديمة ، وذلك بفضل نظام الفناء الذي يعتبر مصدراً داخلياً للنور والتهوية ، ثم السطوح ، التي هي مكان اللقاء مع الشمس والمناظر الخارجية والفضاء .

وفي داخل هذه المنازل يشعر الانسان باعتدال الجو ، الذي لم تكن هذه الجدران المتقشفة لتوحي به . « الباب الكثيف مفتوح ، يؤدي إلى الدار العربية حيث تحدث المعجزة ، حيث ينعدم النهج ويخيم السكوت وتنفتح الغرف على تلك الأقواس الرشيقة . إن هؤلاء الناس ، هؤلاء المحاربين الأشداء ، كانوا يحبون الراحة ،



واجهات دليس



كما هي الحال في تركيا و (أياينا) الدرج الحجرية تعتمد على قوس مطعم

وكانوا يريدون أن يتذوقوا طعم الحياة « (لوكوربيزي) . ففي هذه الديار العربية تجد الأعمدة المصنوعة من الملاط أو الرخام تحمل من طابق إلى طابق الأروقة المتعاقبة التي تحيط بالحوش ، والتي تحفظها الأخشاب الرقيقة . كما يكثر بها استعمال القاشاني لتغطية الجدار مقدار ارتفاع اليد ، وتغطية الأرض أيضاً ، لجعل الساكن يتذوق نعمة الراحة وهو يمشي حافياً ويعتبر استعمال القاشاني من التقاليد الاسلامية العتيقة التي كانت منتشرة قبل النفوذ العثماني . فقد سبق أن قلنا إن القاعات الكبيرة المستطيلة التي ينفذ إليها من خلال تلك الأروقة المحيطة بالحوش كانت موجودة في الجزائر منذ عهد إسدراتن في القرن العاشر .

وفي مدينة دلس الجميلة تعتبر « نواة » المدينة الحديثة ، التي تشرف على الميناء وترتكز على جدار ضخم ، قصبة تركية صغيرة . فهي مبنية بالحجارة المصقولة بنايماً جميلاً بغير ملاط (وترى بها خطوط الآجر تتناوب أحياناً مع خطوط الحجر على غرار النمط البنظي) ويلاحظ الانتساب هنا إلى الهندسة المعمارية التركية أكثر منه في جهة أخرى ونجد في الأفنية (التي ليست أحواشاً بأنهم معني الكلمة) شرفات من الخشب تمتد على طول الواجهات ، حيث يصعد المرء إلى الطابق الأعلى بواسطة درج يمر غالباً بهذه الشرفات . وهذا الدرج الحجري ذاته يستند إلى حنيات مطوقة . ومن الملاحظ أن هذه الهندسة المعمارية نفسها موجودة في بلدة « إبير » باليونان ، تلك البلدة التي كانت تركية منذ ستين سنة خلت . أما مدخل البيت فانه مقوس ومكوع حتى يتمكن صاحب البيت من النفوذ إلى بيته دون أن تلاحقه الأنظار . وفي الطابق الأعلى توجد أحياناً « غرفة سقيفة » مفتوحة على حوش الدار وتزينها أقواس واسعة من الحجر المصقول ترتكز على دعائم

مربعة في منتهى البساطة ، تربطها حيطان صغيرة في مستوى الدرايزين .

إن الحجارة العارية المصقولة أو المرتبة فوق بعضها بكثير من الدقة والضبط تضيف على جدران تلك « النواة » الشبيهة بالبيان الريفي وحدة رائعة ومتانة لم تنل منها يد الدهر . فلون الحجارة الرمادي الواضح معرض إلى النور طوال ساعات النهار ، بل حتى لو كانت الشمس في سمت السماء ، بحيث يجد المرء في هذه الهندسة كل الخاصيات الريفية القبائلية مرتبطة بالطابع المعماري للمدن التركية في ذلك العصر . وتتميز أحواش الديار بمجموعة من السقائف الصغيرة ، والتناير والآبار والحيطان الصغيرة ، التي تحيط بكرمة أو شجرة برتقال ، وتتكون دائماً من الحجر المبيض أحياناً بالكلس فتعطي منظراً منسجماً في منتهى الجمال .

إن السقوف مغطاة بالقرميد « الروماني » ، الذي يعتمد على هياكل خشبية ، كما هو الشأن في جميع بلاد القبائل . وهنا تفقد السطوح كل فائدتها المتمثلة في اتصال المرأة بالمنظر الخارجي والفضاء ، لأن الناس في دلس لا يتبعون نفس التقاليد « لحماية » المرأة كبقية الناس في المدن الكبرى مثل الجزائر . فالمرأة القبائلية تخرج بغير حجاب وتذهب لزيارة الأقرباء أو لإدارة شؤونها وأداء واجباتها دون أن يعترضها أي مشكل . وذلك أن العائلات كلها تتعارف وتجمع بينها الروابط العديدة ، بحيث نجدهم عن هذا الوضع توازن اجتماعي ونظام طبيعي مقبول من طرف الجميع . وتحيط بهذه المدينة القديمة الصغيرة أجمل المناظر الجزائرية ، ونعني بذلك جبال القبائل التي تشرف مباشرة على البحر بالقرب من ذلك الميناء الذي تشرف عليه المدينة بدورها .

أما حاضرة الشرق الجزائري ، قسنطينة ، فانها تفسر لنا بصورة فورية تاريخها ، الذي



يبدو أنه يرجع إلى أقدم العصور ، بل لعله لم تعرف له بداية . فالآثار البونوقية . (ثلاثة قرون قبل الميلاد) عديدة في هذه الناحية (مئآت النصب التذكارية وغيرها من الأشياء المتنوعة) . كان الرومان يسمون المدينة « سرتا » حيث مكثوا سبعة قرون كاملة . ثم تعاقبت عليها الممالك العربية التي لم تترك بها آثار الهندسة المعمارية ، شأنها في ذلك شأن الرومان . على أن سبب ذلك بسيط : فانعزال الجبل الذي يحيط به الوادي كان يحول دون توسيع المدينة . وكانت الحضارات المتعاقبة كلما حلت واحدة محل الأخرى هدمت ما شيدته السالفة على الفور أو عوضته مع تعاقب القرون .

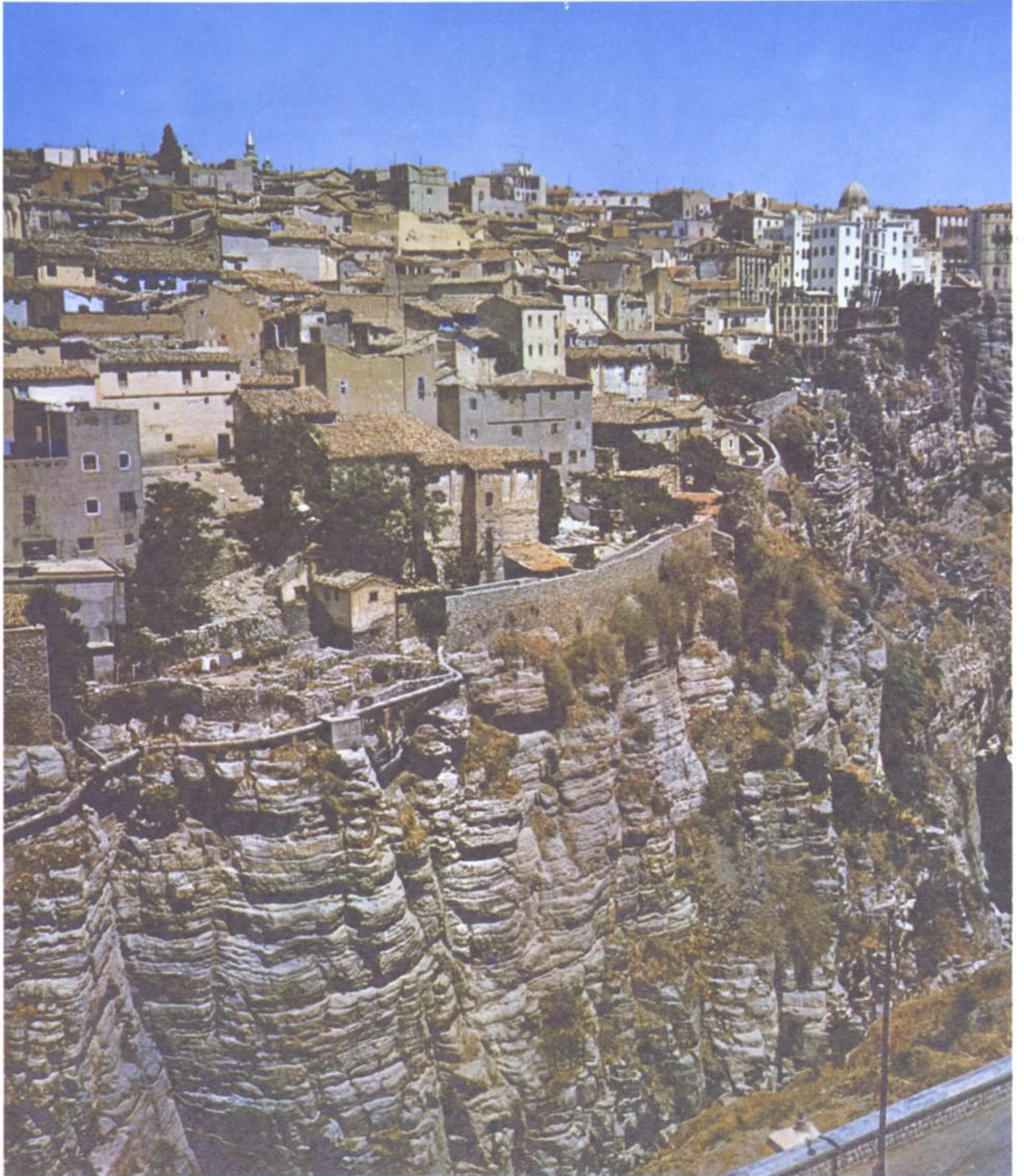


↑ منظر دليس من أجل المناظر على الساحل
جبال زرقاء تشرف على البحر مباشرة

ومعلوم أن قسنطينة ظلت مدينة تركية طوال ثلاثة قرون ، من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر . وهذه الحقبة كافية لحو آثار البناءات السابقة . ومع ذلك فإن المدينة القديمة ، أي تلك التي يمكن لقائل أن يقول أنها تركية ، لها كل مظاهر المدينة القبائلية : أفنية داخلية ، انهج ضيقة وملتوية حتى لا تتعرض للشمس ، سقوف وقرميد ، حجارة مضافورة وآجر . أما « المشربيات » فإنها مبنية هنا ، خلافاً لما

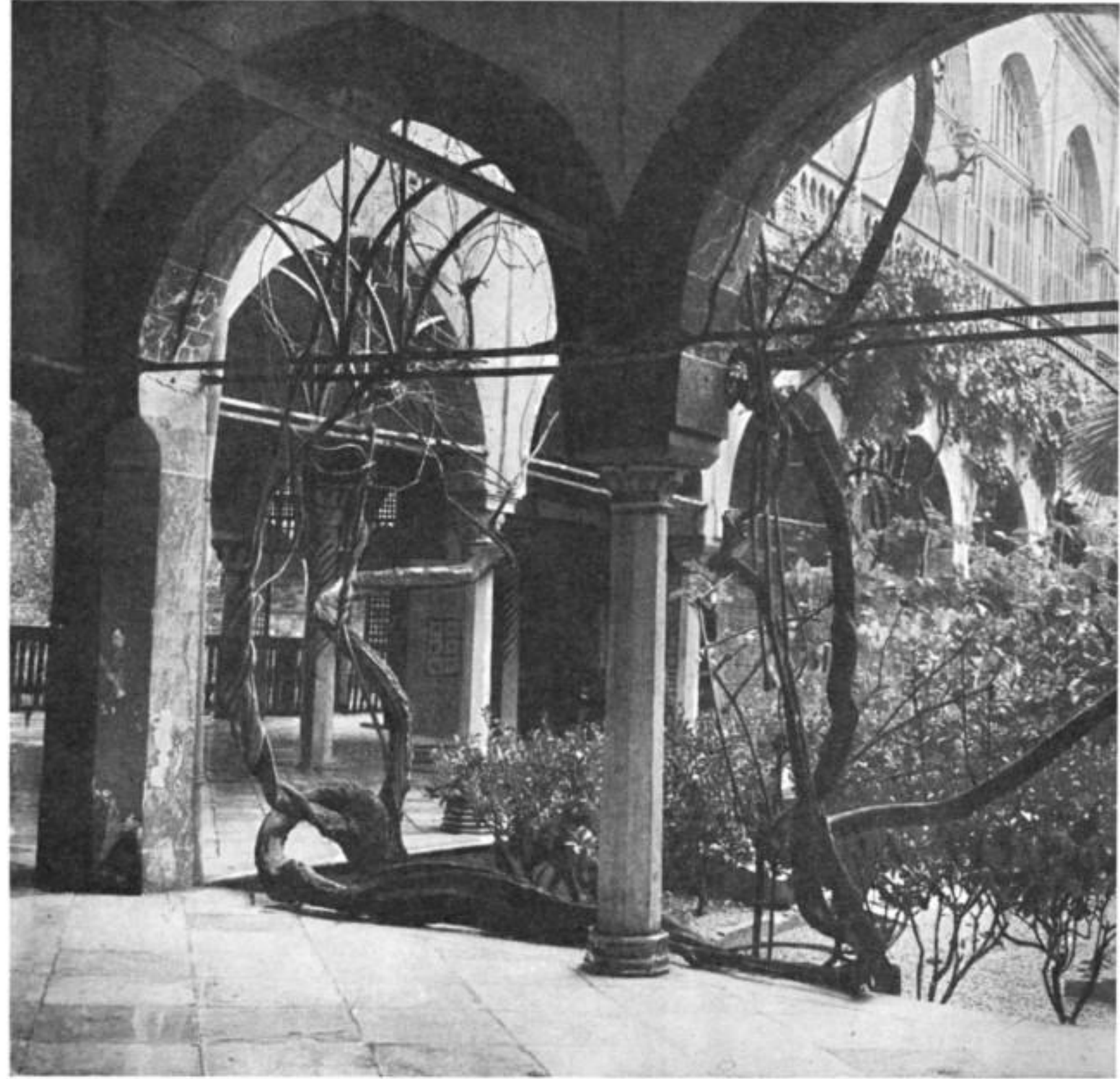


شارع المدينة القديمة في قسنطينة



لاحظناه في قصبة الجزائر ، بالحجارة أو بالقطع الخشبية السمكة بعضها فوق بعض على شكل هندسي بارز التضاريس ، مما يضيف عليها مظهر درج مقلوب . فقد تولى الباي بوحنك بناء مسجد سيدي الاخضر ، وكليان حسان بناء مسجد سوق الغزلان ، وصالح باي مسجد سيدي الكتاني . وكان صالح باي أنشط البايات في ميدان العمران ، فشيده ، مدرستين وقنطرة علاوة على المسجد المذكور وأحبهم إلى الشعب القسنطيني ، الذي نعاه بكل مرارة عند ما اغتالته شرذمة صغيرة من المدينة . ويقال أن الرجال أمروا نساءهم بارتداء الحجاب الأسود حداً على موت الباي . ذلك على الأقل هو التفسير الذي يعطيه الناس عادة لمغزى الحجاب الأسود الذي ترتديه نساء شرقي الجزائر حتى ناحية سطيف .

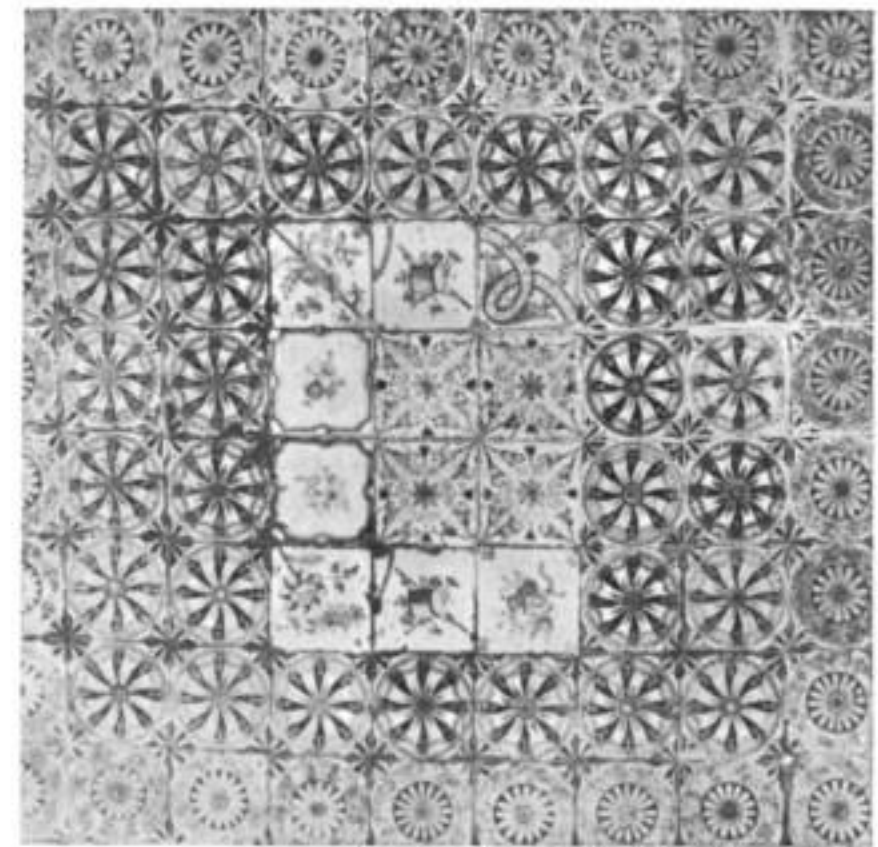
لقد أمر صالح باي ، وهو آخر بايات قسنطينة ، ببناء قصر فاخر وغريب . فالتصميم الذي كان يخضع لنزوة المخطط جعل العمارات



↑ حدائق قصر أحمد باي في قسنطينة



رسوم بقصر أحمد باي



نقوش على الجدار في أحمد باي



سقطو للصوص . فالقضببان التي نراها على نوافذ الطابق العلوي تكمن فائدتها أساساً في تجنب النساء والأطفال أو كل شخص آخر يجلس في النافذة لرؤية المناظر الخارجية من السقوط . وفي هذا المضمار تصبح النوافذ ، التي هي مركز ملاحظة ومقعد في آن واحد أثنائاً حقيقياً ومشكاة تطل على المناظر الخارجية . والنوافذ هنا محاطة تماماً بالقاشاني الذي هو عامل من عوامل النظافة بالنسبة إلى الأطفال الصغار ، إذ أنه من السهل جداً

يعتبر بمثابة الحرارة ولم يرغب فيه الانسان إلا في البلدان الشمالية . وبفضل سماكة الحائط (الذي هو عامل من عوامل اعتدال الطقس) أصبحت هذه النوافذ تؤدي وظيفة إضافية أي الجلوس فيها .

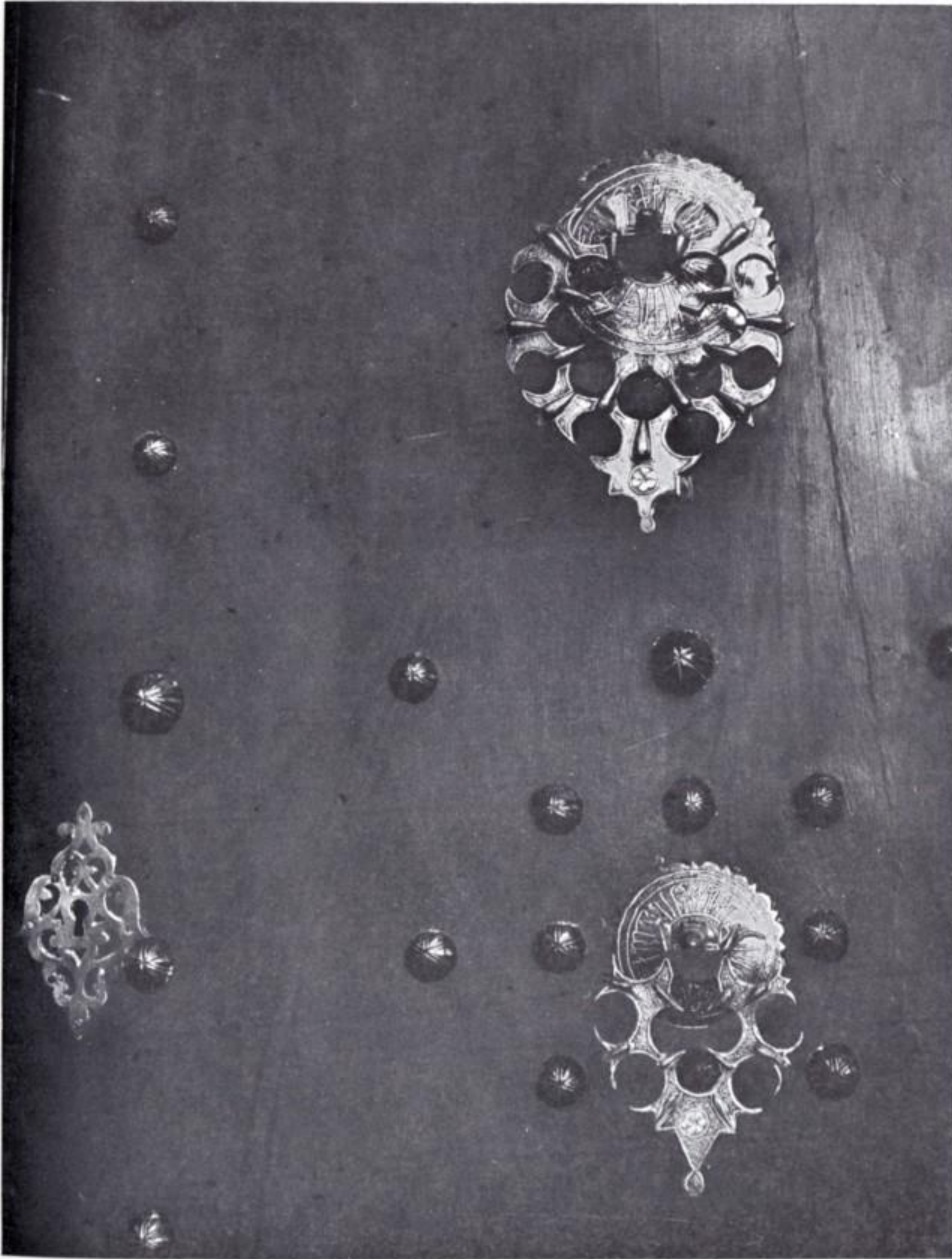
وهذا ما يفسر لنا - زيادة على حجب المرأة - سبب القضببان التي نراها سواء في الطوابق العليا أو في الواجهة المواجهة للفناء أو في الطوابق السفلى والواجهات الخارجية حيث تقى البيت من

تنتظم حول عدة أفنية وحدائق تمر بها أروقة مفتوحة . وتتحلى هذه البنايات بالرخام الايطالي وخشب الأرز الأوراسي والقاشاني الزاهر الغني . وتزخرف جدران الأروقة نقوش وصور جميلة ، تمثل مدناً صغيرة وموانئ (بصورها الثلاثة) وقلعة صغيرة تشرف على الأرياف . ومن بين هذه المدن التي تحمل أسماء عربية تتجلى صورة مكة في أسلوب يثير العواطف .

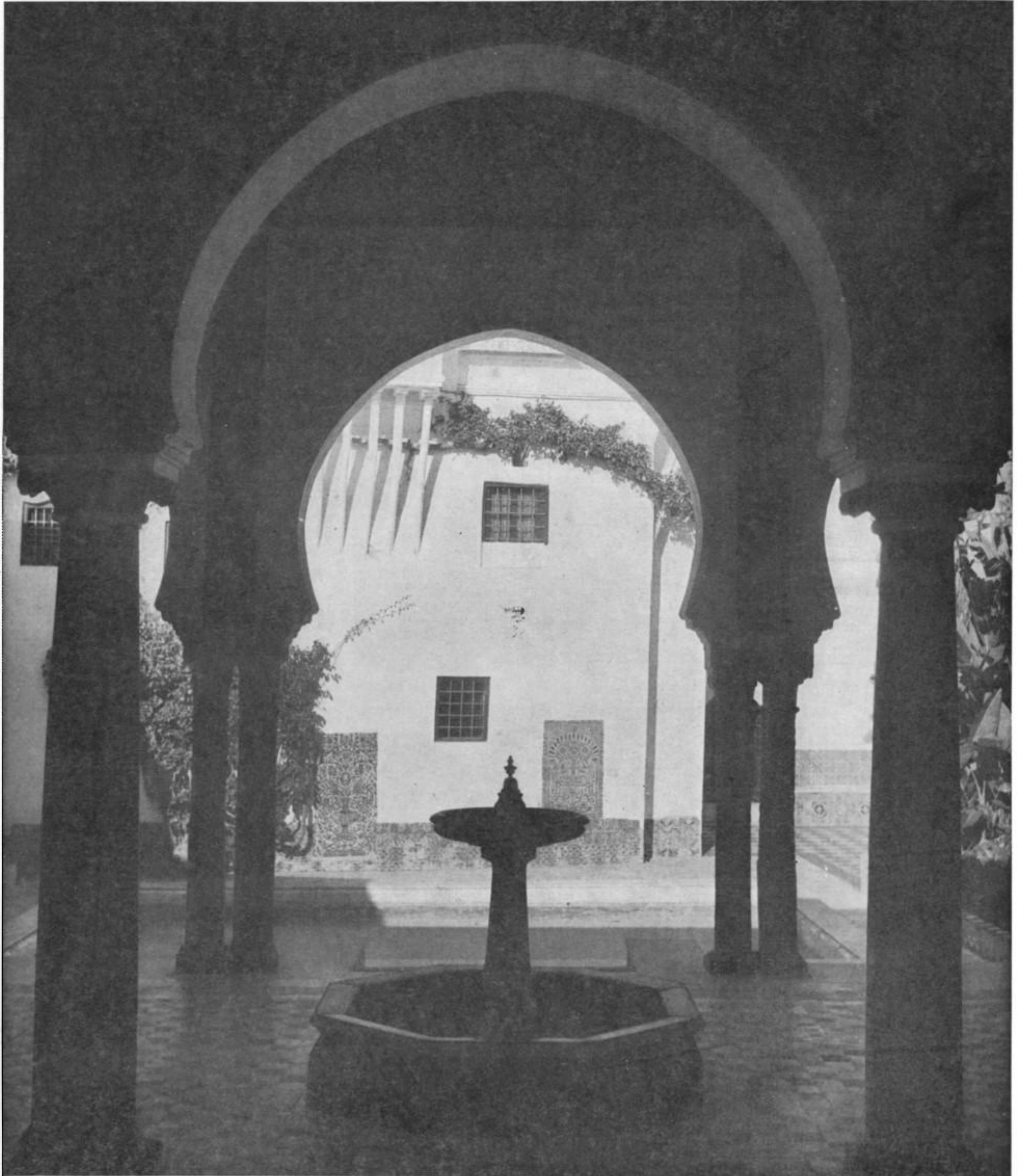
إن منازل الأمراء في الجزائر تستحق دراسة خاصة . ومن جملة ذلك قصر الداوي ، الذي يشرف على حي القصبة بالعاصمة ، (حيث وقعت حادثة المروحة التاريخية) ، وضواحي المدينة التي « احتلتها » الآن الشوارع ، والتي كان بها الكثير من الفيلات والقصور .

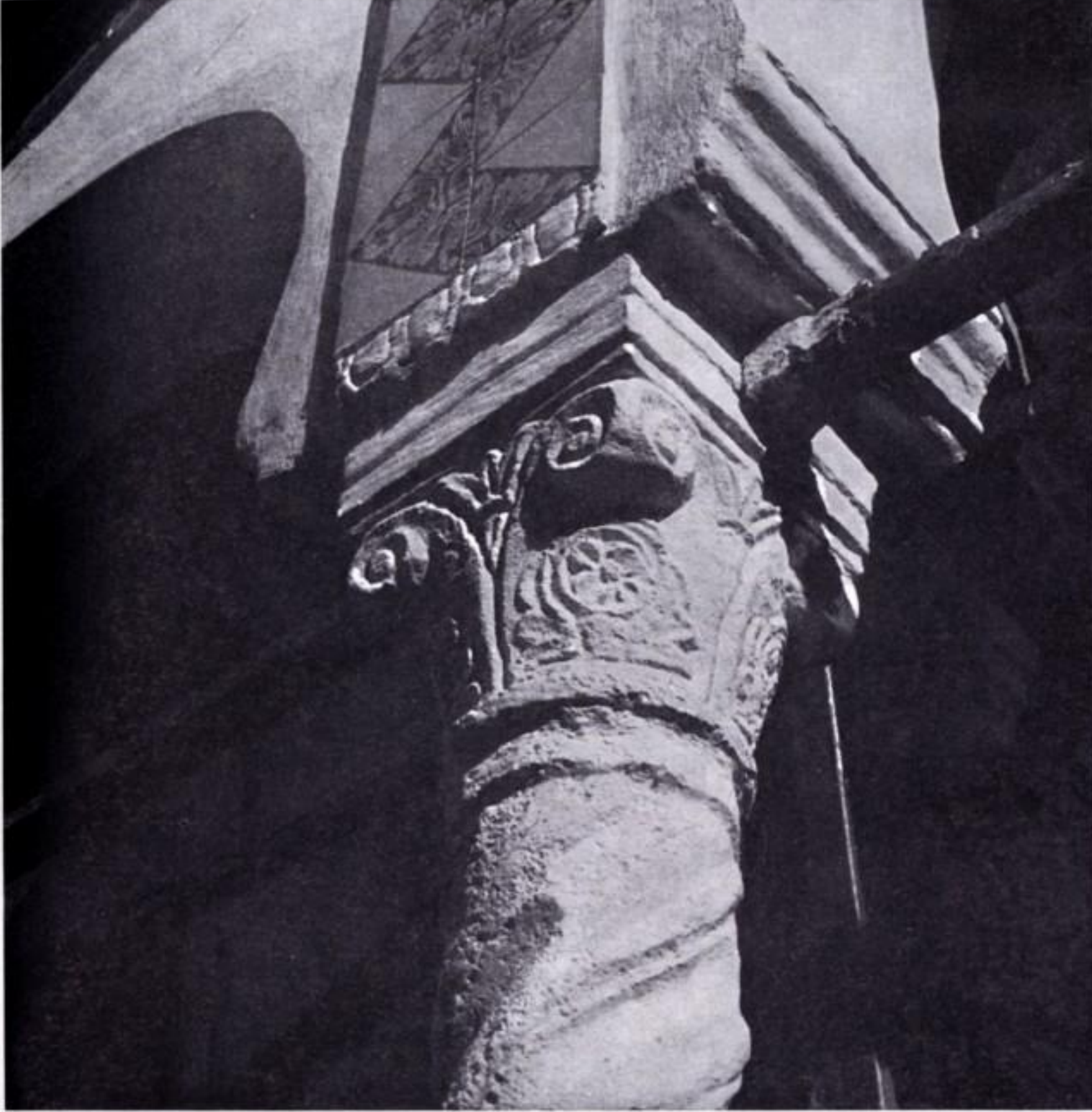
لقد كان من الممكن إحاطة المباني التي تقع في الضواحي ، والتي تند عن الشروط المعمارية ، بالحدائق ولا تشتمل على أفنية (مثل جنان بن عمار) أو بها أفنية مثل (عبد اللطيف) ! . ونقصد بهذه المباني متحف باردو الحالي ودار مصطفى باشا ودار الرئيس وجنان الداوي ، وعبد اللطيف ، وجنان بن عمار . أما إذا كانت البناية هامة من حيث حجمها فان الفناء يصبح ضرورياً (مصطفى باشا) .

إن الفيلات الواقعة في ضواحي المدينة ، خلافاً لدور القصبة التي تكاد واجهاتها تكون بدون نوافذ تفادياً للأنظار . ما عدا « المنافذ » الضيقة التي ذكرناها آنفاً ، إن هذه الفيلات لها نوافذ وإن كانت تشتمل على فناء . وهذه النوافذ التي لم تخضع لترتيب متناسق الأجزاء أو « أكاديمي » ، قد تم تصميمها بصورة خاصة . فهي غالباً ما تكون على شكل مربع لتعطي المنظر الخارجي نفس الأهمية التي تعطي النور اياها أو أكثر منها ، ذلك أن النور تحت هذه الأجواء



مطارق باب قصر باردو ، العاصمة

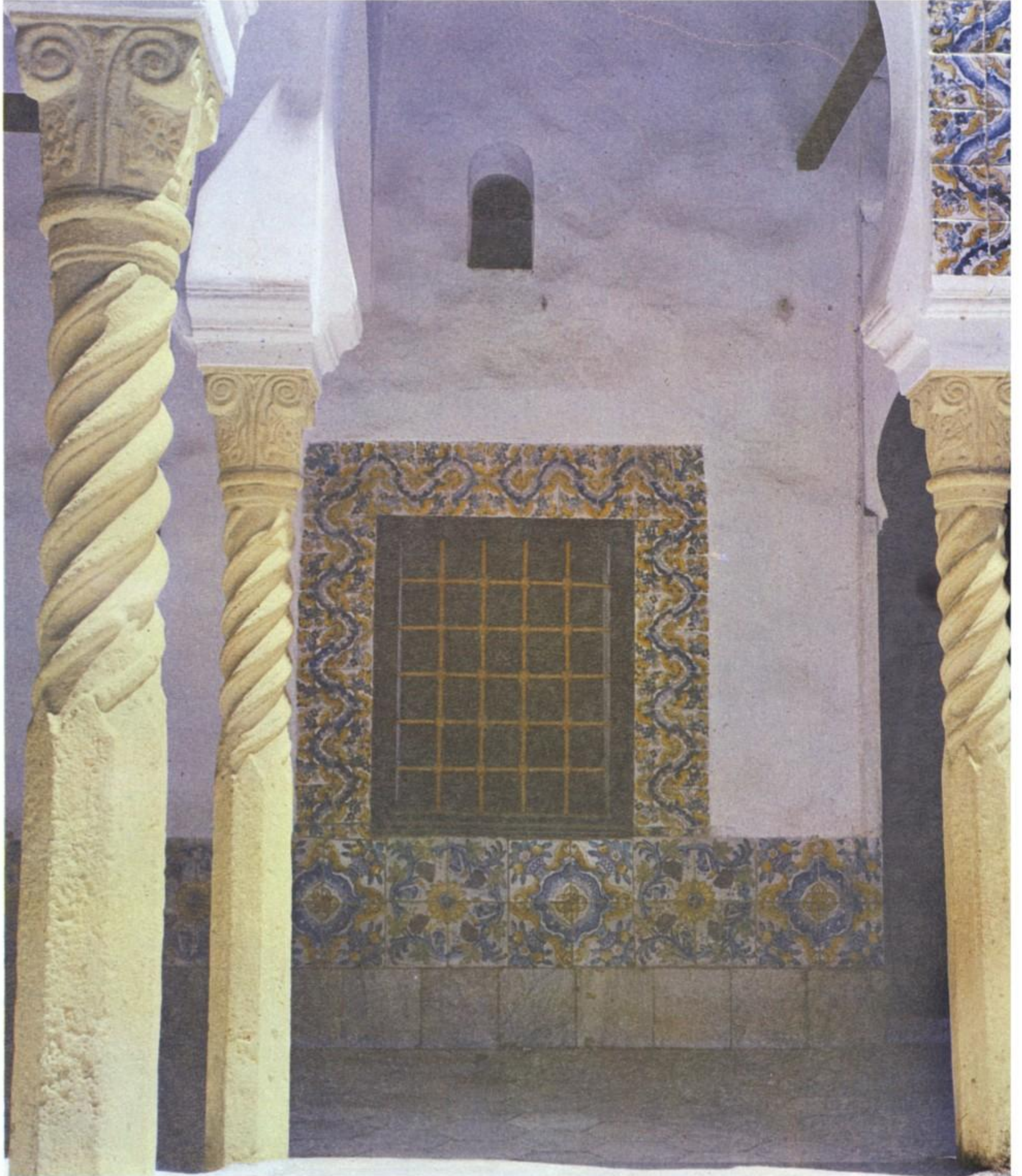




↑ في مسكن أميري من العهد التركي بالعاصمة .
قصر من الطباشير يبدو من مادته أن صناعته محلية ،
ويكشف عن بهاء أكثر من رخام إيطاليا .

تنظيف وغسل هذه النوافذ ، خلافاً لتلك التي
تدهن بالكلس . ومن جهة أخرى فإن هذه النوافذ
منخفضة أي قريبة من باحة الطابق ، وبذلك
تشكل قسماً من الزخرفة التي تتحلى بها الغرف
الداخلية التي تقع حول الجدار ، والتي يبلغ
ارتفاعها طول الرجل أو الطفل . إن موقع النافذة
على مقربة من باحة الغرفة مرتبط بجلوس الانسان
تقليدياً على أرائك أو زرابي . وبهذا الصدد
يجدر بنا أن نلاحظ اليوم بأن البلدان الشمالية
التي وجدت في أغلبها حلاً عصرياً لمشكل التدفئة
قد تخلت في نفس الوقت عن المقاعد المرتفعة ،
عن تلك « العروش » الصلبة التي ظلت قروناً
متطاولة تشكل الوسائل التقليدية لنمط الحياة ،
الذي فرضته قساوة المناخ . فقد كان الانسان في





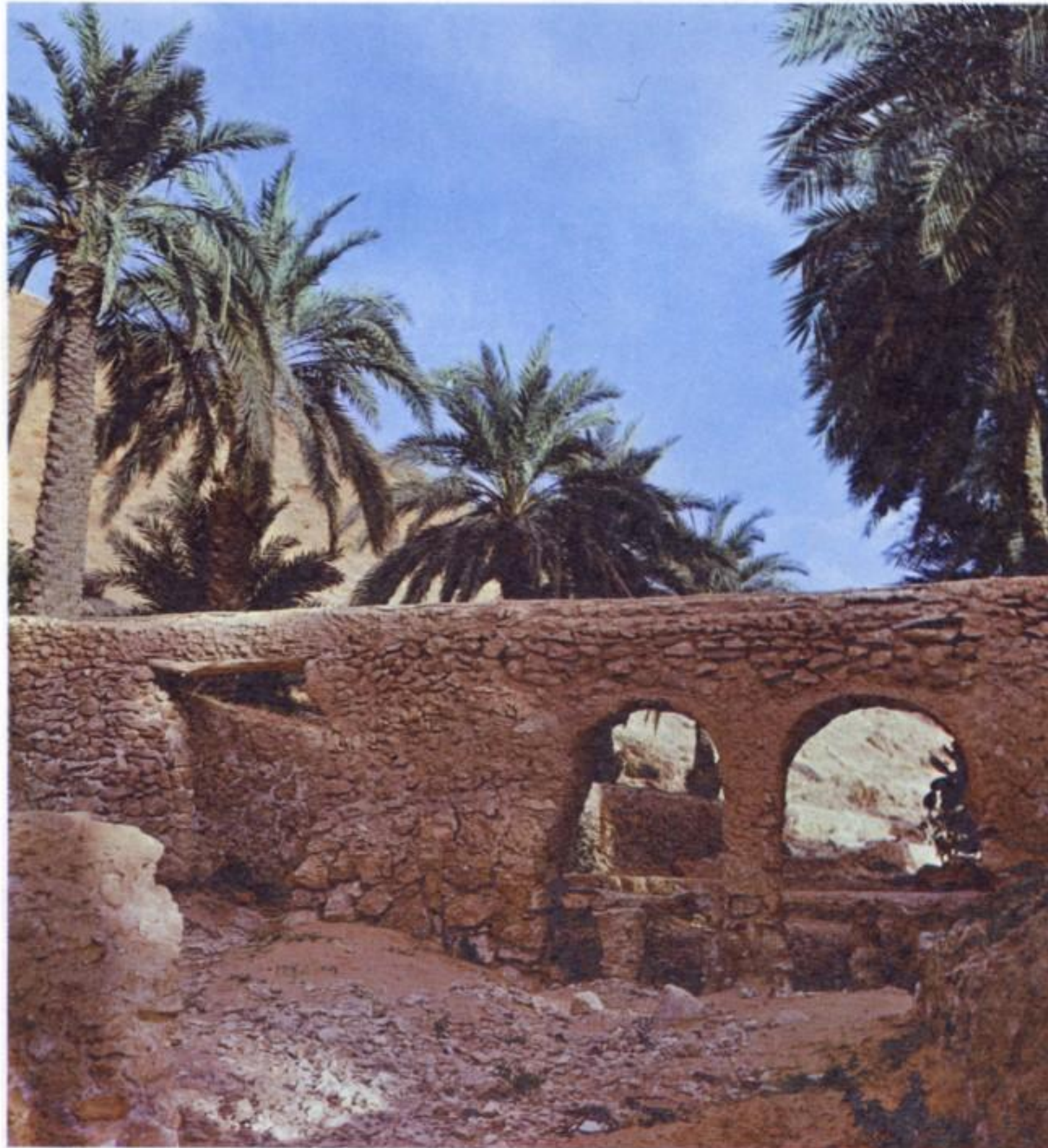


غرداية .



هذه البلدان يجلس عالياً ليتجنب باحة البيت التي كانت أشد برداً من كل أجزائه ، والتي كانت تداس بالأحذية المربوطة الوسخة ، التي يصعب نزعها باعتبار رداءة الطقس . وخلافاً لذلك فإن الانسان في المشرق وفي المغرب كان يجلس على الزرابي لأن هذا الجزء من البيت هو خير مكان للجلوس ، ولأنه غير مدنس بما تحمله الأحذية الخفيفة التي يسهل نزعها عند الدخول إلى البيت ، والتي هي الأحذية الملائمة لطبيعة البلدان الحارة . والمقاعد التي اشتهرت اليوم في البلدان الشمالية بكونها « مريحة » هي تلك التي تمكن من رفع الركبتين إلى مستوى علو المقعد أو فوق ذلك أحياناً . بل إن الانسان أصبح اليوم يجلس على

↑ ممر في الواحات .



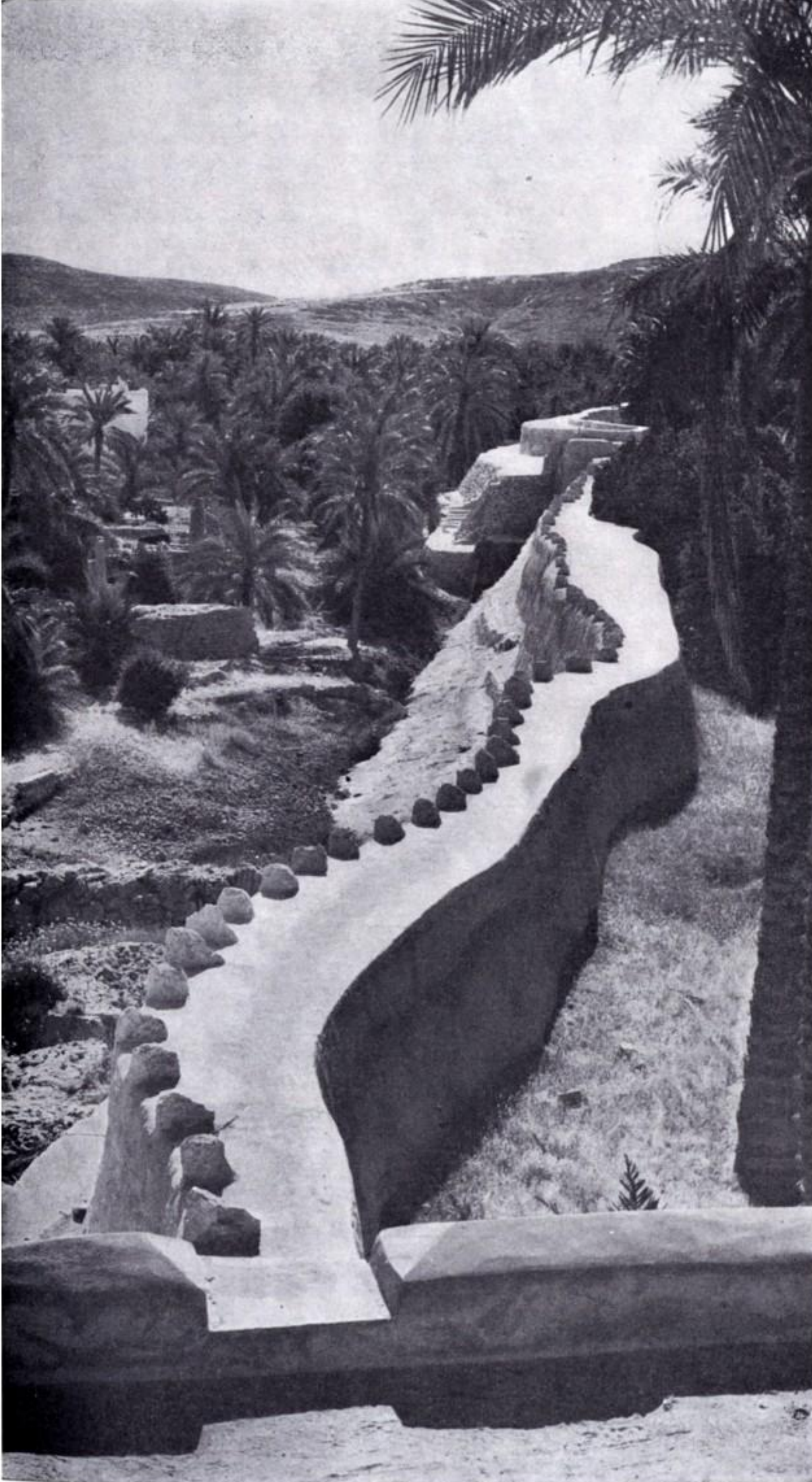
المخدة أو على الأريكة بعد التغلب على مشكل التدفئة وتوفير النظافة . وبمجرد الاطلاع على المجالات الأوربية نلاحظ بكل سهولة هذا التغيير الذي دخل على نمط الحياة ، والذي له أهميته الخاصة . وهكذا التحق الغرب ، بعد أن تغلب على صعوباته في الحياة ، بموكب الشرق والمغرب في نمط حياتهما الداخلية المنطقية المريحة . ذلك النمط الذي تبناه سكان هذه الأرض منذ قرون دون تكلف ولا حرج وبكل تعقل وحكمة .

نستطيع الآن ، بعد هذا العرض التاريخي السريع عن الهندسة المعمارية الجزائرية ، أن نوجه أنظارنا حول الجهات الخمس الكبرى للهندسة المعمارية : ميزاب ، سوف ، الغرارة ، القبائل والأوراس . وهي جهات معزولة من حيث جغرافيتها أو جد شاسعة ، وهي جهات تاريخية أيضاً .

وفي هذا المضمار ، يوجد في الجزائر ، لأسباب تاريخية وجغرافية أيضاً ، مجموعة لا تحصى من الوحدات الصغيرة للهندسة المعمارية مثل الزيبان وبلاد القبائل العليا وتماسين ، بالقرب

أشغال مياهية قديمة في الواحة .

سد بني يزقن الطويل يخترق الوادي كثعبان أبيض كبير . إنه سد وطريق ، وبالخصوص ملتقى ومجمع للمياه النادرة .



من توقرت . وبما أنه من الصعب علينا أن نصفها جميعها فاننا سنحاول أن نذكر أهمها على الأقل في آخر هذا الكتاب .

إن وادي ميزاب ، لولا عمل الانسان ، لكان يبدو غير لائق للحياة والاستقرار البشري . فعند ما يقترب المرء من هذه الناحية تبدأ المناظر الحجرية تحل محل الرتابة التي يشعر بها وهو يتأمل مناظر الأغواط . وقد سمى الجزائريون من سكان الصحراء هذه الجهة « بالشبكة » للدلالة على شبكة الوديان التي خلقتها التضاريس النائية المنتظمة ، وكأنهم كانوا يرونها من علي .

وهل يمكن أن تسمى بالوادي هذه الطريدة الرملية التي تنعرج بين الهضاب الحجرية ؟ وذلك أن الانتظار إلى المياه المفيدة المنعشة قد يطول عامين أو ثلاثة أو أربعة أو عشرة أعوام ، ومع ذلك فقد وجد بها النخيل ، أتى به الانسان فاعتني به طويلا . وهكذا أصبح الفيضان بهذه الوديان مفيداً للغاية ، بفضل حكمة وشجاعة السكان الذين أنشأوا السدود وحفروا الآبار وبنوا المجاري التي لا حصر لها وبالتالي قاموا بتنظيم واستصلاح التربة . إن تنظيم المياه على هذه الصورة الجليلة قد جعل الزائر الأجنبي يتساءل في أغلب الأحيان كيف ومتى تم ذلك وهل هو حقيقي أو أثر من آثار الماضي . ومع ذلك فإن هذه الانجازات ، رغم أنها ترجع إلى القرون الغابرة ، لا تزال تؤدي دورها فتشد المياه الخطيرة والمنعشة أيضاً ، التي تنحدر من الوديان إلى البساتين لريها وللاء الجيوب الممتدة في صخور الآبار . ولولا هذه المشاريع لذهبت سدى مياه الوديان ، التي يخشى الناس عنفها وسرعتها .

فالبساتين في حد ذاتها كانت إذن هندسة معمارية وعمران . والأنهج الضيقة التي تكونها



حيطان البساتين المبنية بالطوب لا تعدو أن تكون بمثابة قنوات موسمية استعملت بها منافذ مقيسة بحيث لا ينفذ منها إلا القدر المحدد لكل بستان لا غير . واذا وجد من وراء هذا البستان بستان آخر فانه يحظى بحقه في توزيع المياه بواسطة ميزاب يخترق الجدار المشترك . إن المهندس الذي أشرف على هذه الأعمال قد آلى على نفسه ألا يقع في الخطأ . فقد أقسم بالقرآن أن يوزع المياه بانصاف .

إن المجموعة المحلية بأكملها ، أي كل الرجال القادرين على العمل ، هي التي حفرت هذه الآبار المشتركة وبنيت السدود - وسد بني يزقن الجميل خير دليل على ذلك - تحدوها أنغام الموسيقى الصحراوية . وهكذا أيضاً بنيت المساجد والحصون التي تحيط بالمدينة وبروج الحراسة .

↑ من الحوش ، درج يؤدي إلى السطح .



كل دار تشكل حصناً .



مطبخ صغير تحت الرواق يطل على العناء .

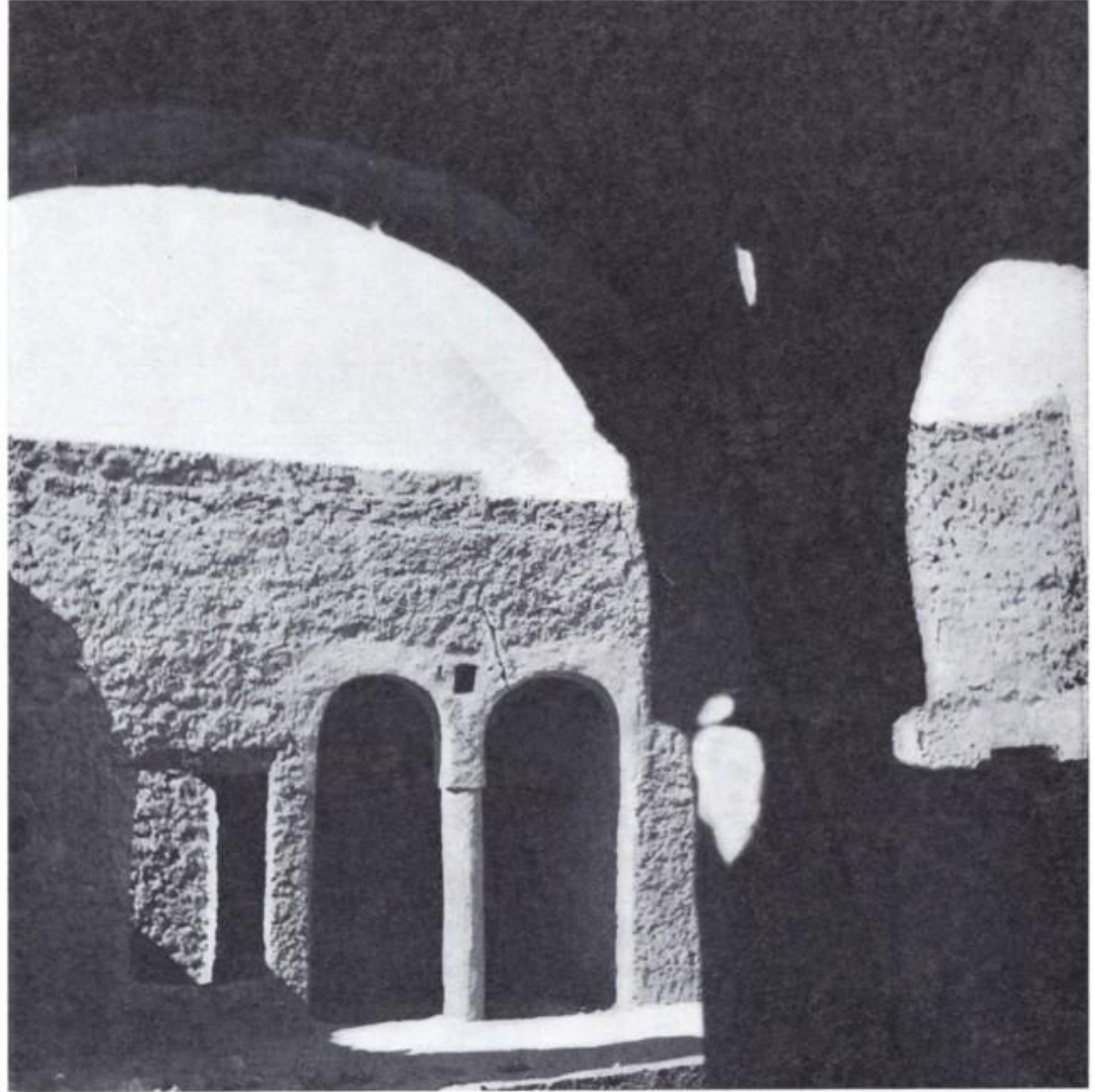
إن سد بني يزقن ، الواسع الأبيض ، الذي يعبر الواحة ، يعتبر طريقاً أيضاً . فهو أقرب سبيل لاجتياز الوادي ، ويمكن قطعه على الحمير . ومن الملاحظ أيضاً أنه يمتاز بزخرفة غريبة تتكون من الحجارة المصطفة على قسم كبير منه لشد الانقراض التي يجرها الفيضان (ويحتمل أن تكون هذه الانقراض بشرية أو حيوانية لأن الفيضان يباغت الناس أحياناً بصورة عجيبة) على أن هذه الحجارة دوراً آخر : ففي هذه الناحية التي تمر بها المياه عادة عند ما لا تتجاوز الحجم المعهود ، نجد السد منحدرًا بعض الشيء ، ونرى الناس يقيسون ارتفاع المياه أو هبوطها بالحجارة المذكورة . فيقولون لك أن الماء قد بلغ الحجر الخامس أو السادس حتى الحجر العشرين . وهذا المقياس يستعمل أيضاً للانداز في حالة فيضان خطير .

أما منازل هذه الواحة فهي حصون صغيرة خاصة ، وذلك لثلاثة أسباب :

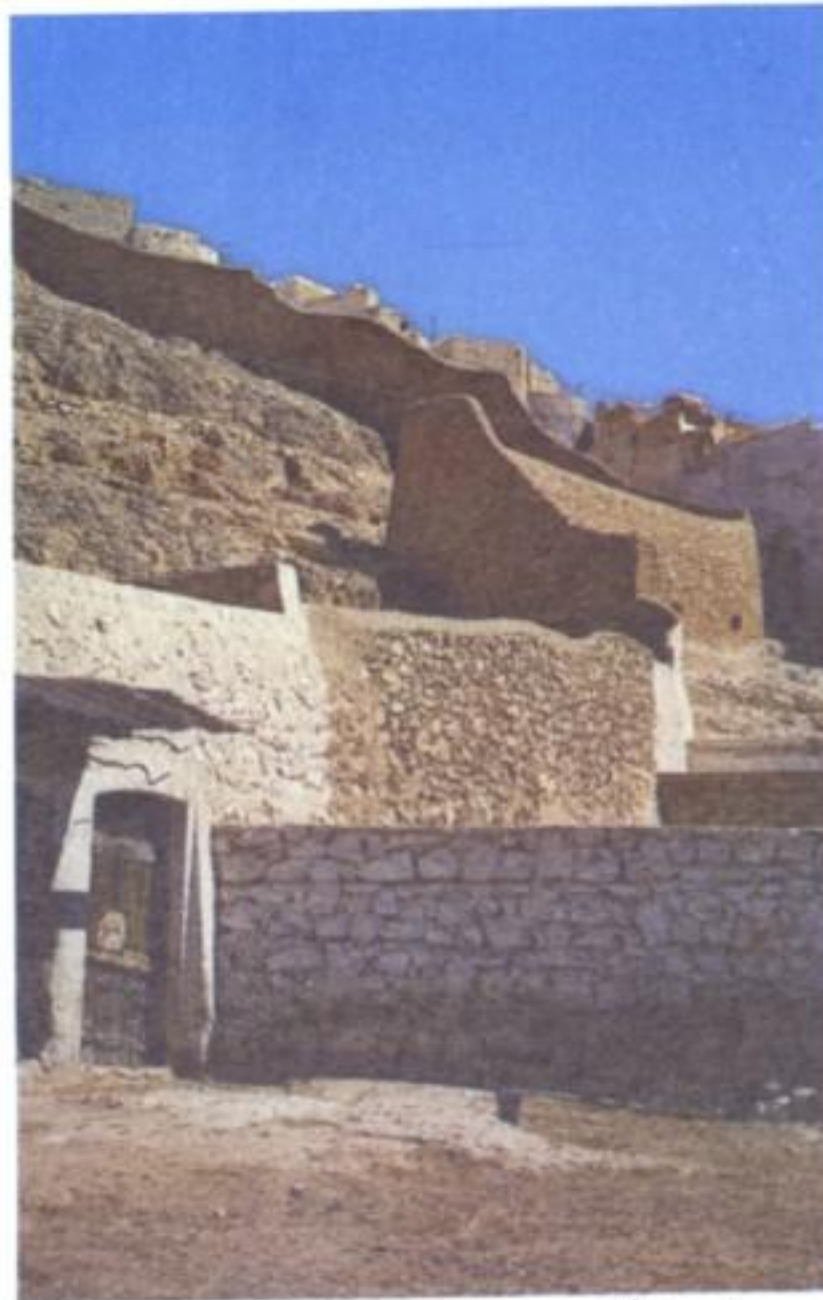
- لأن انعزالها يتطلب حمايتها من اللصوص والنهابين .

- لأنها مبنية غالباً في مجرى المياه - وهي أشد نهياً - الأمر الذي يقتضي بتدعيمها وتمتينها .

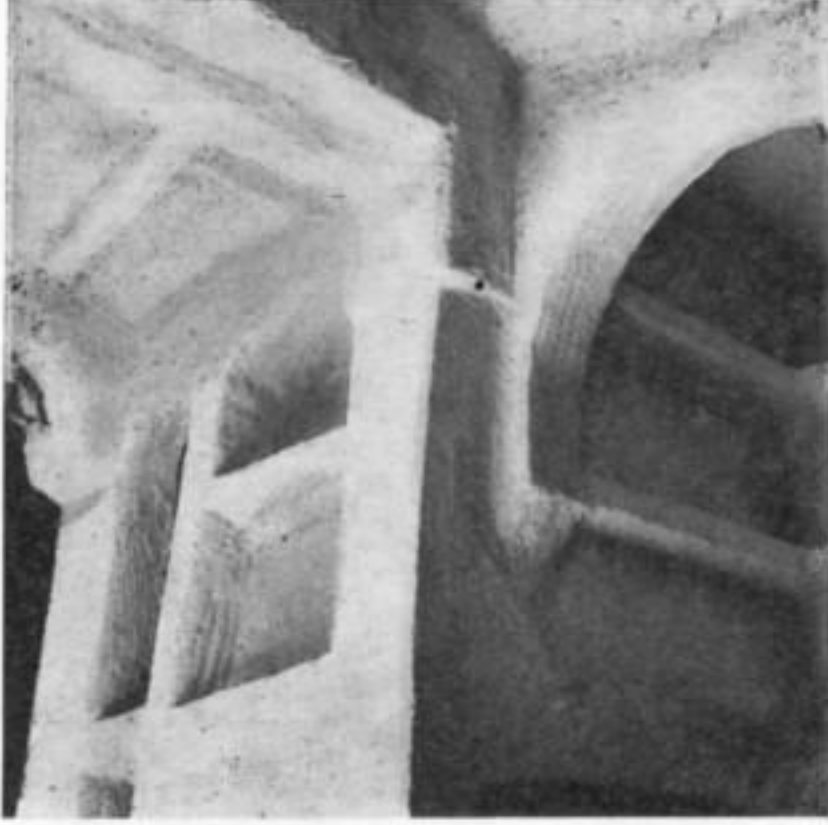
- لأن الحياة في هذا الوادي تمتاز باهتمام السكان بسرية الحياة العائلية . وإذا كانت المرأة هنا ، كمثيلتها في القصبة ، تتمتع بحق النظر إلى الخارج ، كما تدل على ذلك النوافذ الصغيرة التي نراها تتخلل الواجهات على مستوى الانسان جالساً أو قائماً فإنه لا ينبغي أن يراها أحد غير أقرب الناس إليها من الرجال . لذلك نجد أيضاً الجدران المسماة « بالمعمارية » تحيط بالسطوح حيث تجلس العائلة مساء وتنام ليلاً (دور بساتين النخيل هي دور الإقامة الصيفية) .



↑ حوش في العطاف .

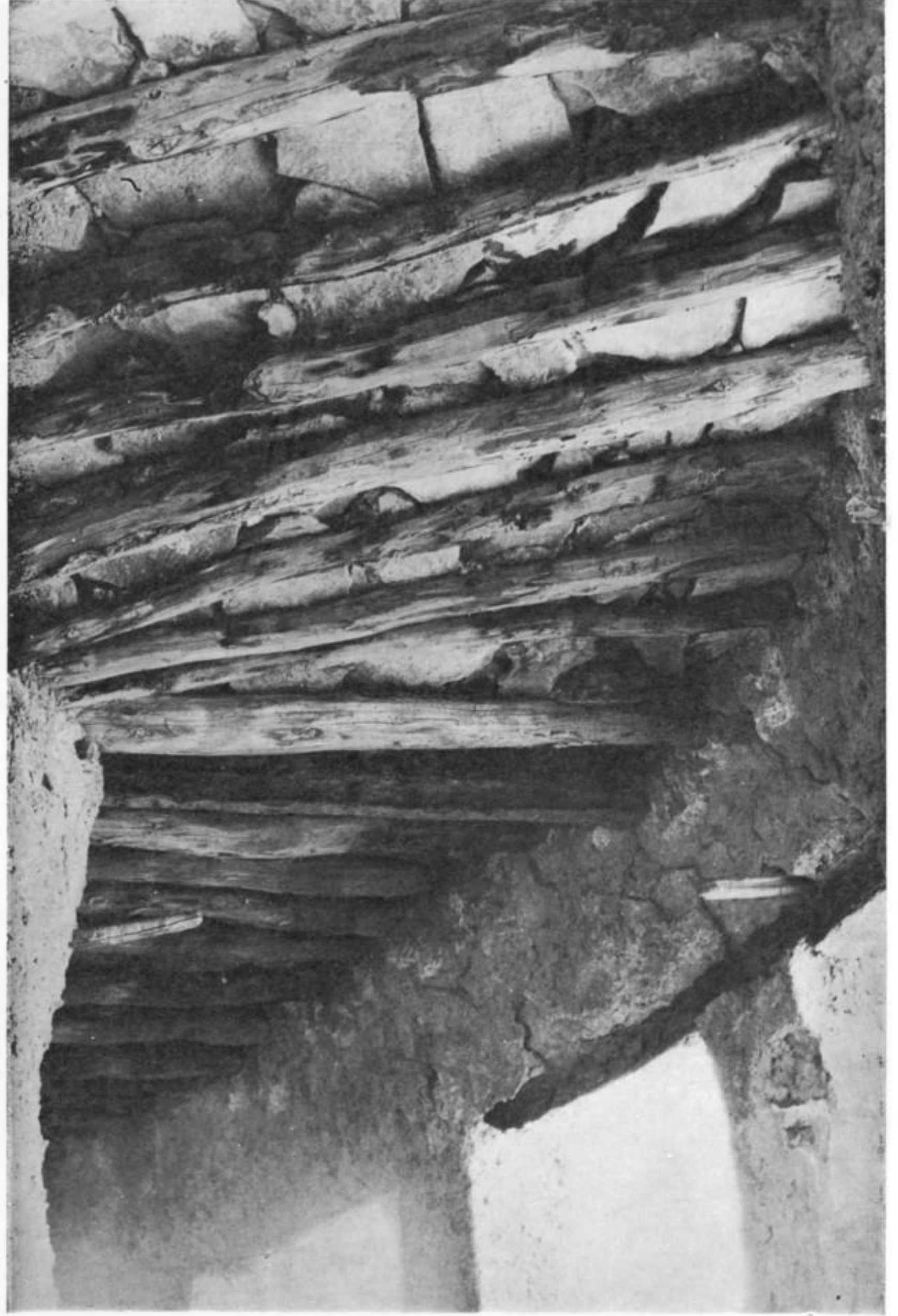


سور بني يزقن



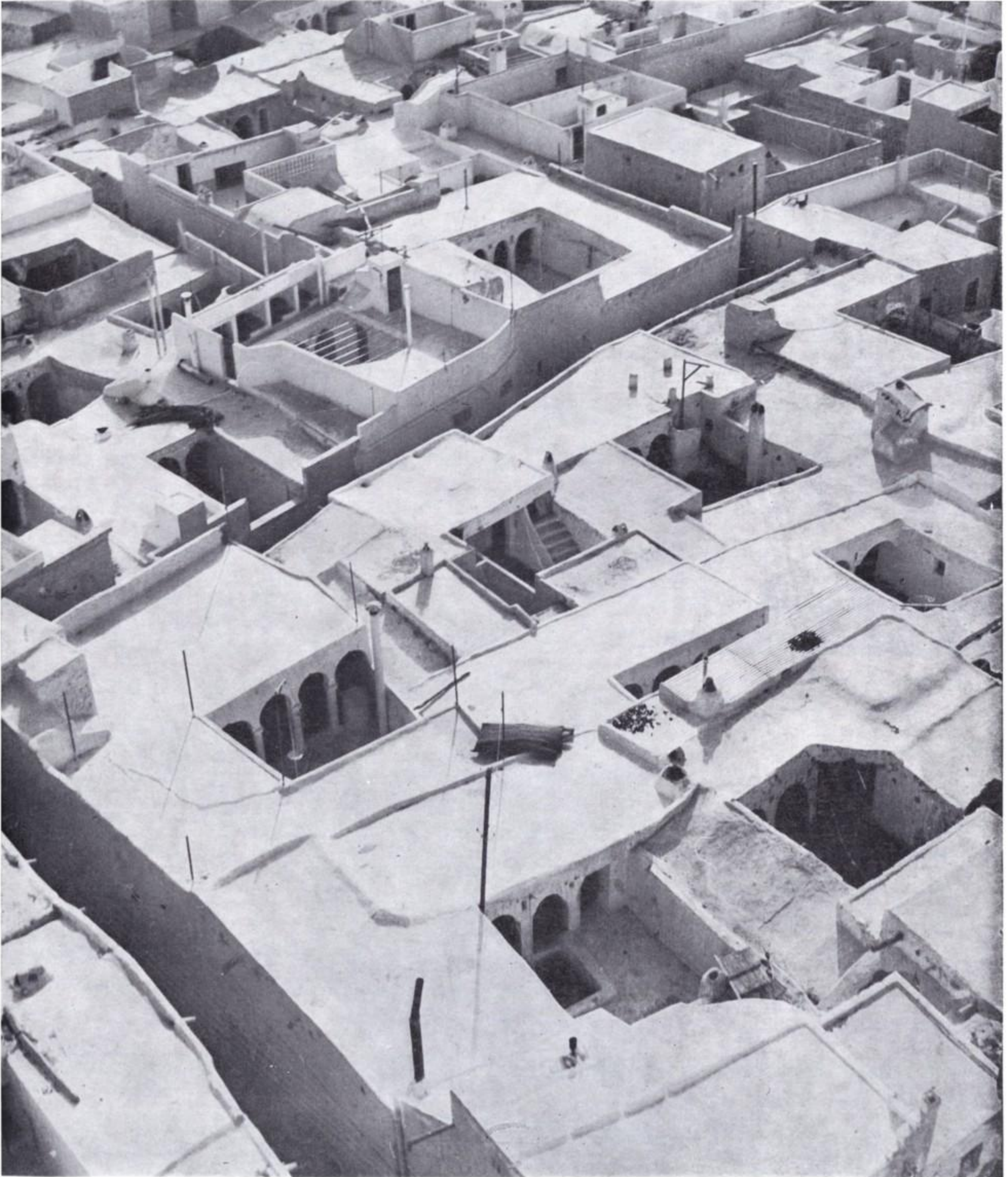
↑ كوات داخلية في دار بالواحات .
واليوم - في الهندسة المعمارية الحديثة - يعمل
الاتجاه إلى إزالة الأثاث لتعويضه بالخزانات
والمشككات .

العلوي ، وذلك لترك الطابق الأرضي كقاعة
تتوفر بها الرطوبة اللازمة . ويتسرب الضوء
والهواء إلى هذه القاعة مثلما يتسربان إلى البئر عن
طريق منفذ عمودي يصعد إلى الفناء الموجود في
الطابق العلوي . وهكذا يتوفر للأسرة الواحدة
أكبر عدد ممكن من الغرف المختلفة في بيت
واحد ، ونعني باختلاف الغرف اختلاف المناخ :
فالفناء لم يبخل أبداً من رواق مغطى وحجرات
صغيرة يمكن أن تستعمل للنوم أو لخزن التمور .
فهي عبارة عن خلايا نسكية ليس بها من أثاث
غير مشكاة وبعض الرفوف تخضع لقواعد الذوق
العصري ، أما المطبخ فإنها توجد حيث تتوفر
الرطوبة أي في الطابق الأرضي نهاراً وفوق السطح
مساءً ، وليس لهذه المطبخ إلا مدخنة واحدة .
وفوق الغرف التي تحيط بالفناء توجد السطوح
المحاطة بجدران « عمرانية » والمنعزلة بعضها عن
بعض أحياناً . فهي غرف في الهواء الطلق ، وهي
حجرات النوم الصيفية ، لأن جدران الدار تحتفظ
بالحرارة المخنقة التي تجعل من الصعب النوم في
الغرف الداخلية . فالمرء يشعر براحة وتمعنة عند



سطح - هنا - لجامع . حجارات مسطحة
موضوعة على أخشاب .

لقد سبق أن تحدثنا عن الأفنية . وفي هذا
السياق نلاحظ أن هذه الأشكال موجودة في
ميزاب ، سواء في المساكن العمرانية ولنفس
الأسباب التي ذكرناها بشأن القصبة بالجزائر ،
أو في المساكن الكائنة بالبساتين ابتداء من الطابق



سطوح غرداية .



دار صغيرة زرقاء ، أعيد استصلاحها من جديد،
تحتفظ بالطابع العتيق ، وتشهد بما يقدر عليه
أهل مزاب في ميدان البناء .

ما يصعد إلى هذه السطوح بعد يوم كامل من
العمل ، فيستلقي للاستمتاع بلطافة الهواء واستنشاق
روائح الياسمين والورد ، التي تعبق بها الحدائق ،
والاستماع إلى حفيف خوص النخل القريب .
والواقع أن هذا الخوص قريب من الديار إلى
حد أنه يكاد يشكل قسماً منها في بعض
الأحيان .

إن قطع النخلة هنا أمر لا يفكر فيه أحد ،
إذا أخذنا بعين الاعتبار ما تتطلبه من جهد وزمن
قبل أن يستفيد صاحبها من ثمارها . وعلى العكس
من ذلك فإن البناء لا غنى عنه هنا . لذلك نرى
الناس يبنون باستمرار حول بساتين النخيل
تاركين للأشجار متسعاً ، حتى تستطيع مقاومة
الرياح .



شارع صاعد .



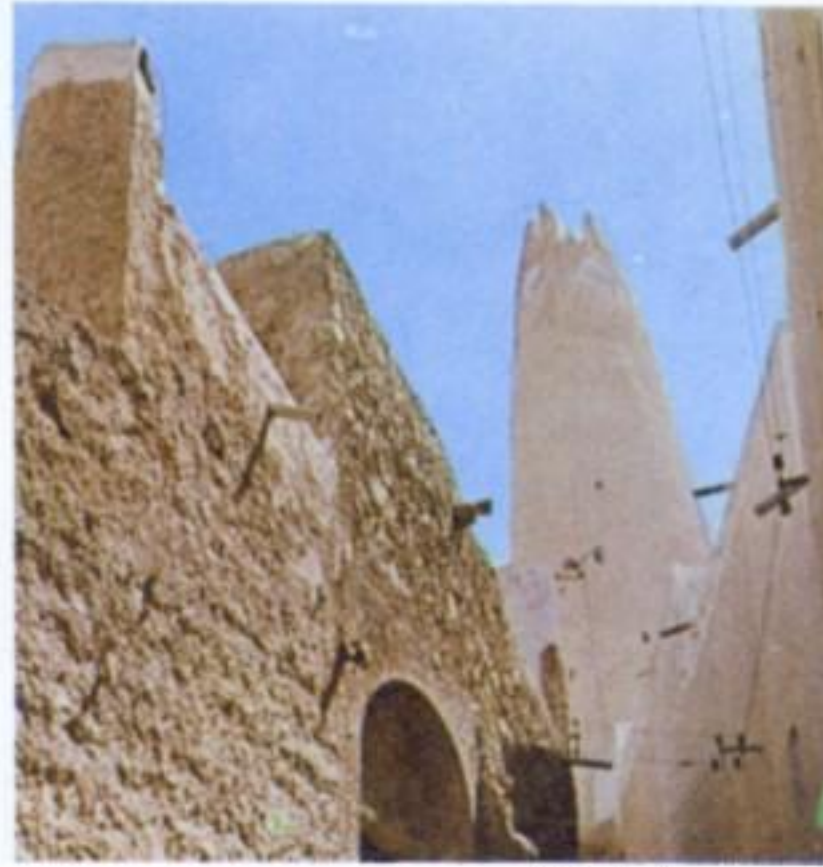
أسوار بني يزقن .

معروفة حيث أن الحصون تحدد مسبقاً حجم المدينة المزمع بناؤها كما يشرع في بناء المسجد قبل المساكن وهذا لأسباب تعبدية. ثم أن المساكن التي تشيد حول المسجد الموجود عادة في أعلى مكان تصطف في حلقات متحدة المركز إلى غاية الحصون حيث يوجد داخلها وبالقرب منها ساحة السوق . ولحماية المدينة (التي هي أشبه بحكم نظامها بالعمارة العصرية منها بالقرية المتلاحمة البيوت)

وما دمننا بصدد البناء نود أن نوضح أن السطوح هنا مغطاة بطبقة من الجبس الصحراوي كبقية الدار ، ما عدا عارضاتها وسقفها التي تبقى عارية ، فتشكل مادة رائعة تستهوي المهندسين المعماريين في العصر الحاضر . إذ أن هذا البناء الذي أصبح يتكلف ثمناً باهضاً ، لعل جانب كبير من المتانة إذا فكرنا في القرون التي تحداها . ففي داخل الغرف تكون الكوات والرفوف المبنية بالجبس أنواعاً من النقوش التي ترضي النظر وتشكل كل زخرفة الدار .



مسجد مقبرة قرب بني يزقن .



↑ صومعة غرداية .

ولقد روعيت نفس الترتيبات ونفس الصرامة في بناء مساكن مدن : غرداية و « مليكة » وبن لزغن وبونورة والعطاف التي أسست تقريباً في نفس الوقت قبل ألف سنة وكذلك مدينتي بديان وقرارة البعدين اللتين أسستا بضعة قرون بعد ذلك . إن مدن الميزاب تعتبر من أقدم نماذج المدن المعمارية والتي بقيت على حالتها عبر القرون . وكانت المساكن في الماضي تبني لاعتبارات تاريخية

كانت تغلق الأبواب المؤدية إلى الأنهج الضيقة . وكانت هذه الحماية تهدف أيضاً إلى الحفاظ على الطابع الديني بالنسبة للمجموعة .

ويمكن أن نستعمل في وصف مدن الميزاب نفس العبارات التي توصف بها القصبة في العاصمة : أزقة مغطاة « ظلال ونسيم » أفنية داخلية تحظى الشرفات بفضلها بأشعة الشمس والتهوية وكذلك السطوح المرتبة على شكل أدراج والمعرضة لأشعة الشمس والمشرفة على المناظر الخارجية . ولكن « قصبة » الميزاب أقدم بكثير من قصبة العاصمة وهي على طراز جزائري أصيل . ولا يتوقف الفرق بينهما على بضعة قرون من التاريخ بل يمكن الفرق على وجه الخصوص في تلكم الصرامة المقصودة التي تتجنب الأبهة التي تتميز بها المساكن في عهد الأتراك . وهذه الصرامة



بني يزقن . المدينة تصعد نحو صومعتها العالية . المسجد هو المركز الديني للمدينة ولكنه أيضاً مركز ثقافي . وفي الماضي كان المركز الإداري كذلك .



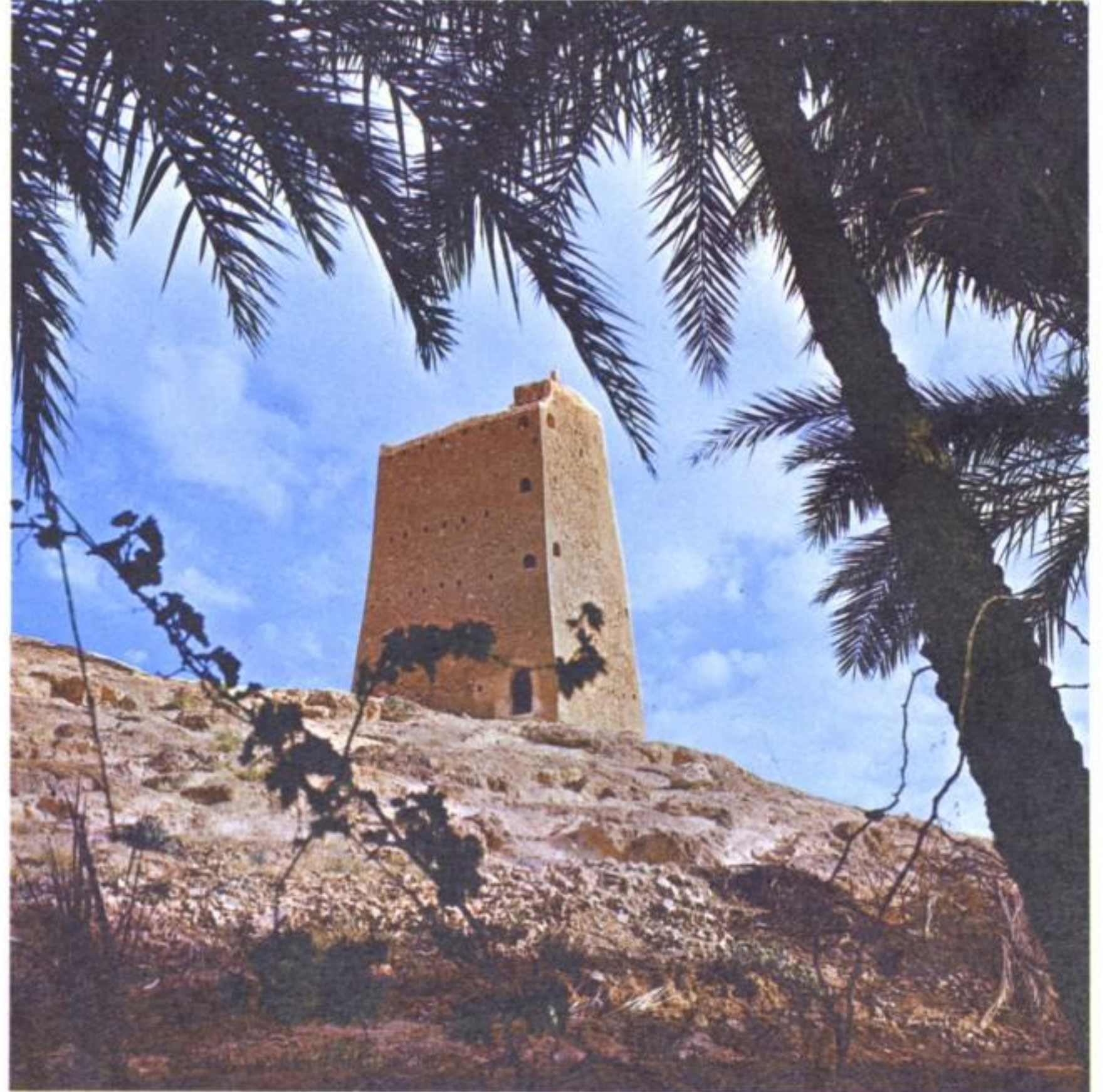
قبر سيدي عيسى . نحت سريلي . أين نجد تعبيراً أحسن عن الفن المتناسق الحديث .

المعمارية لا تعني جهل الفنيات والتفنيات ذلك أن الاباضيين قد برهنوا قبل حلولهم بالمزاب على معرفتهم الجيدة لكل جزئيات الفن الاسلامي وتجلت هذه المعرفة في مدينة « إزدرانس » ولا أدل على ذلك من الأملطة المعروضة في متحف الطفولة بعاصمة الجزائر .

إن الميزاب البلد المتدين قد أولى مساجده عناية خاصة سواء من حيث عددها أو حجمها ذلك أن المساجد مثل المساكن لم يثقل كاهلها بالزخرفة . وهذا الزهد المعماري عائد إلى صعوبة الظروف المعاشية في الصحراء حيث كان هؤلاء السكان المتشددون في الدين يعتقدون أن مناجاة الاله لا تحتاج إلى أبهة وفخامة . إن مساجد المدن مقرونة كلها بمدرسة وتوابعها . ومعلوم أن

لكل مدينة مسجداً واحداً ما عدا العطاف أم المدن التي نجد بها مسجدين إثنين . وقد بنيت هذه المساجد بنفس الأسلوب الذي اعتمد في بناء المساكن . فكلما تعذر استعمال القوس بسبب نقصان الأخواص استعملت أعجاز النخل على الأبواب إن خشبات القاعات الكبرى مرتكزة على أعمدة مصففة أما الأحذية فقد خصصت لها كوات غير نافذة . وهذه المساجد البعيدة عن ضوضاء الأسواق يسودها جو من الطمأنينة والخشوع . أما في الفترات التي تشتد فيها الحرارة تتم الصلاة في الأفنية والسطوح .

وإذا كانت المدينة لا تشتمل إلا على مسجد واحد فإن المقابر والواحات تضم عدة مساجد لا صومعة لها يتردد عليها من لبس الحداد والعاملون بالقرب منها . وهي مساجد صغيرة حيث لا تجتمع فيها إلا جماعات قليلة وهي في غاية من البساطة والتنوع في آن واحد . ولقد أصبحت قياسات هذه المساجد في نسبة يمكن معها استعمال ذلك القوس الخوصي الذي يساوي قوس المنازل



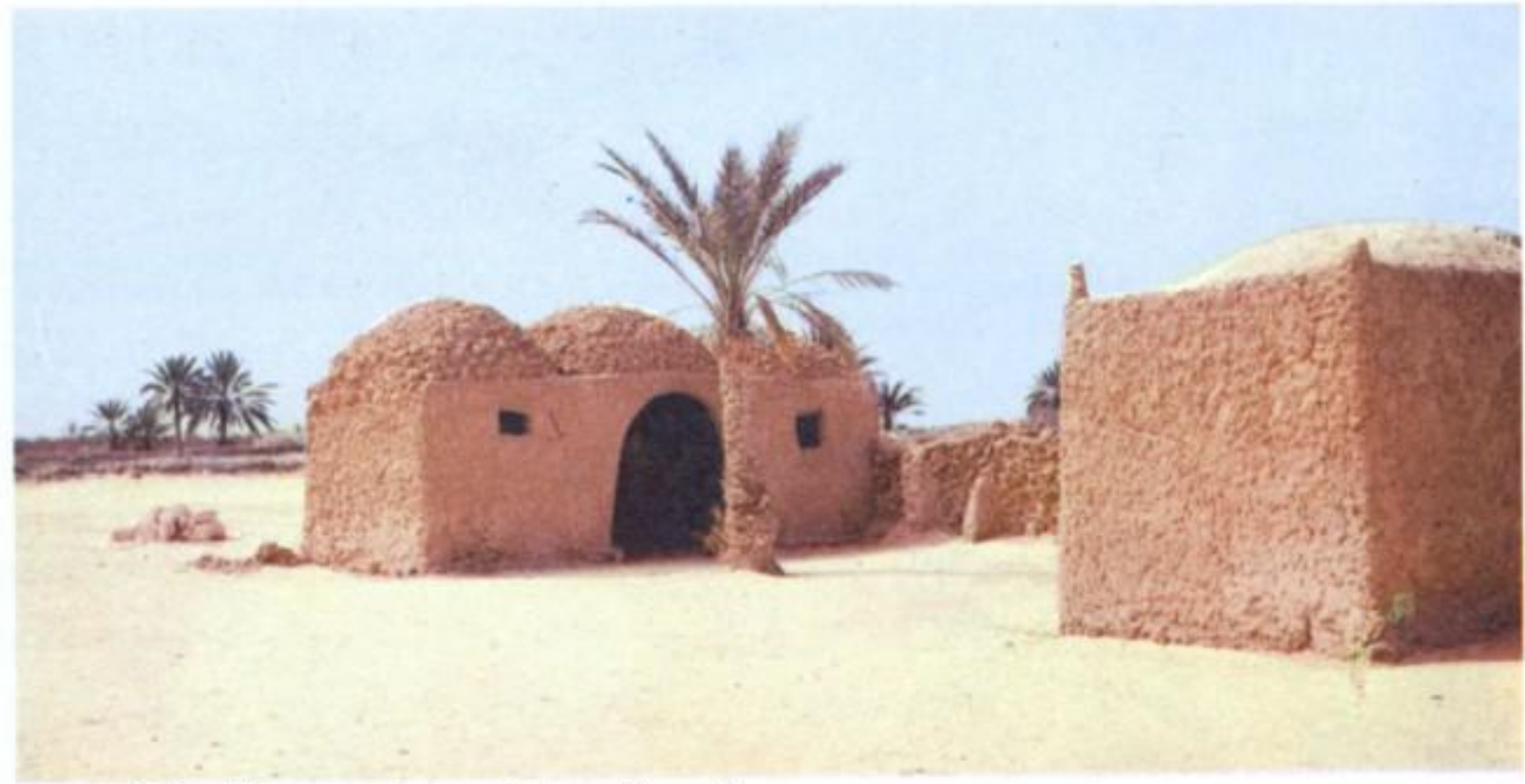
برج للحراسة في النخيل .



زهرة رملية .

صفحات خالدة (1) . وكانوا كلما يزورونها يكتشفون روائع جديدة من الفن المعماري القديم والفن الانساني النابضين بالحياة وهو فن لا زال دائماً وأبداً يحتفظ بقيمته التاريخية والتعليمية .

وفي وادي السوف تستعمل مادة « اللوز » أداة للبناء . إن منطقة الوادي تحتل جغرافياً شمال العرق الشرقي الأكبر وهي منطقة تمتد عليها الكثبان على مدى البصر فتخال رملها الذهبي أمواج بحر تتراقص وتنبت على هذه الكثبان هنا وهناك بعض الاعشاب الجافة . وللرياح أهمية كبرى في حياة هذه المنطقة حيث تحول الكثبان من مكانها وتنسف « سيفها » (قممها) فترتفع الرمال براقعة في السماء ، ويعتبر « البحري » أو الريح الشرقية من أعنف الرياح من حيث الخسائر التي تلحقها فهي عبارة عن فيضان بالنسبة للمناطق الأخرى . لذا فان صناعة الرجال في هذا البلد تبديء بالبحث عن المياه والوقاية من الشمس والرياح .

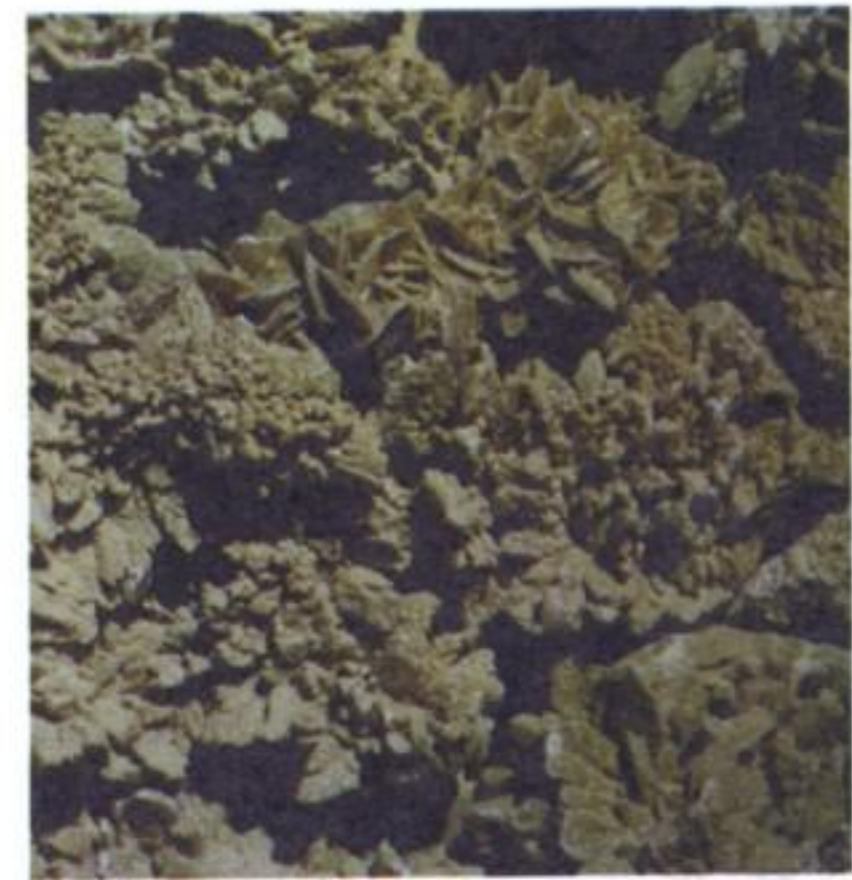


↑ خلية بدار في سوف . وحولها خلایا أخرى تحوم بالحوش . المسكن يكون كاملاً .

وهذه المساجد بلغت صفة الكمال بفضل الروح التصوفية التي كانت تحدو بناتها .

وهكذا نفهم جيداً لماذا يعود الأباضيون المغتربون إلى مسقط رأسهم ليقضوا به آخر أيامهم . وفي هذا الجو البسيط تميل نفس الانسان إلى التعب والتصوف دون ما صراع داخلي فتغمرها الطمأنينة والسكينة . إن أضرحة الأباضيين متشابهة كلها ومجهولة إلا أن قبور الرجال يوضع عليها حجران وقبور النساء ثلاثة أحجار . أما قبور المشايخ - الذين هم في آن واحد رؤساء قبائل وحجة في العلم والفقہ - فانها تستثنى من هذه القاعدة التقشفية حيث يترك فيها العنان للشاعرية والتفنن . فقبور المشايخ عبارة عن نحاعة كبرى تجريدية تتميز بتعققاتها المنسجمة وقممها المرتفعة التي تتلائم الشاماً كلياً ومناظر الجهة كلها .

لقد زار منطقة المزاب عدد كبير من المهندسين المعماريين الأوربيين مثل المهندس المعماري « لو كوربيزي » الذي كتب عن المزاب

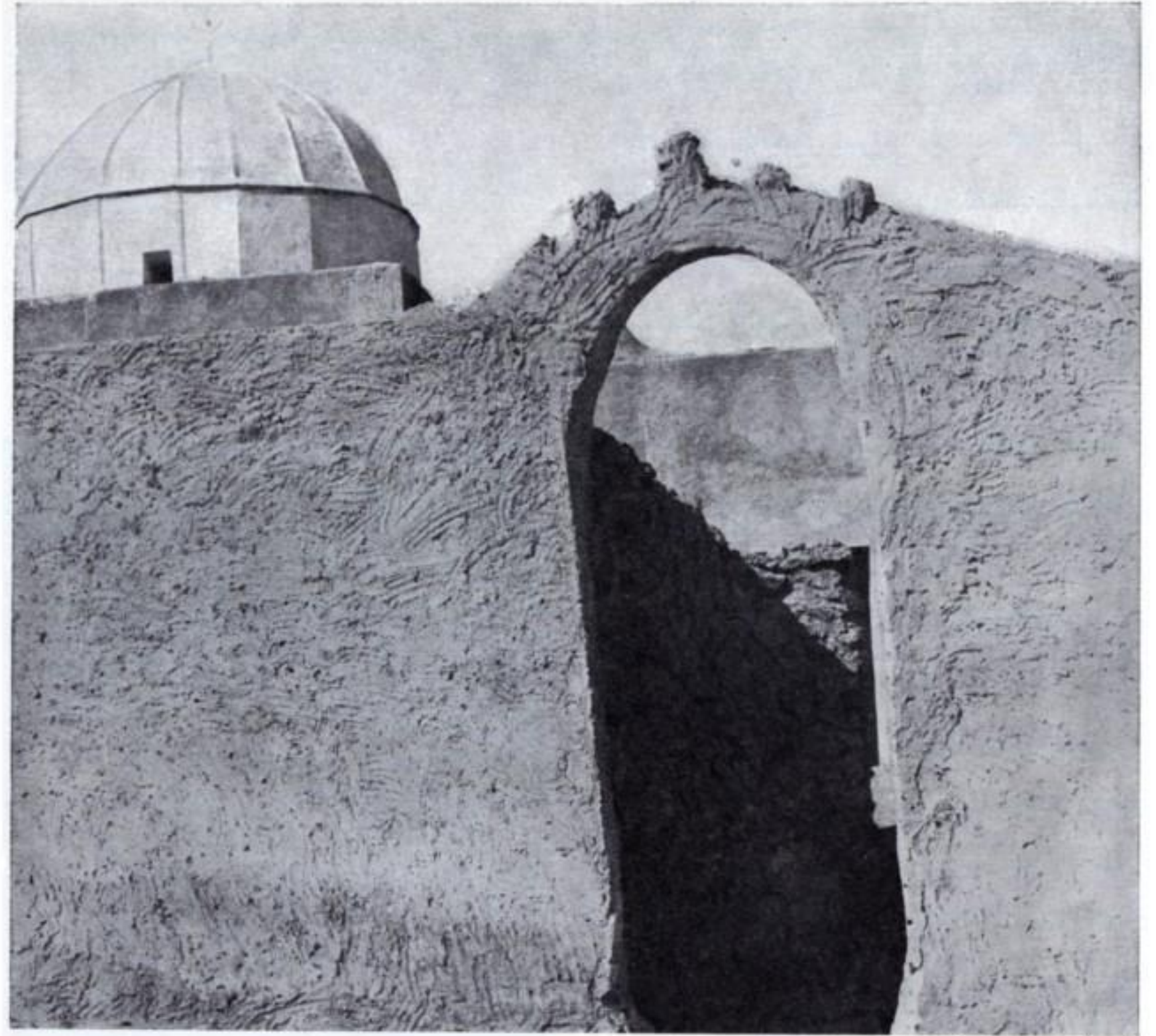


في سوف يتم البناء بالزهور . . .

من حيث سلمه . أما جدرانها المدهونة بالكلس الأبيض والملبسة بالتمشيت (جبس الصحراء يتميز بسرعة تصلبه) فلا توجد فيها زوايا حادة . والنور فيها ساطع حيث تفتح على واجهة بأكملها إلى جانب الظلال والأنوار التي تنعكس على الأرض بين الأعمدة فتضفي على القاعة لوناً مريحاً . أضف إلى ذلك الكوات المنقوشة داخل الجدران والشبابيك الصغيرة المطلة على سماء أزرق . فهذا الجو يدعو إلى التأمل وإلى الانقطاع عن العالم . إن الانسان يشعر بداخل هذه المساجد بأنس وألفة منقطعي النظر وسط الطبيعة المحيطة التي تكون معها جسماً واحداً متناسقاً .

(1) نشرت هذه النصوص في المجلة الفرنسية « تصاميم » لسنة 1931

وفي وادي السوف يتم البناء بما يسمى « باللوز » والغريب في الأمر ان هذه المادة البنائية تتولد عن هذه الرياح العنيفة نفسها . وهذه المادة عبارة عن تخثر جبسي مختلف الأشكال تسمى محلياً « باللوز » ويسمىها الأجانب « بوردة الرمال » إن مساكن أهل وادي سوف جميلة المنظر بقبابها وتعتبر هندستها المعمارية من أعجب الفنون المعمارية في الجزائر وأكثرها أصالة . ولكن لا بد من الوقوف قليلا عند دراسة القرية السوفية لنفهم فنها المعماري .



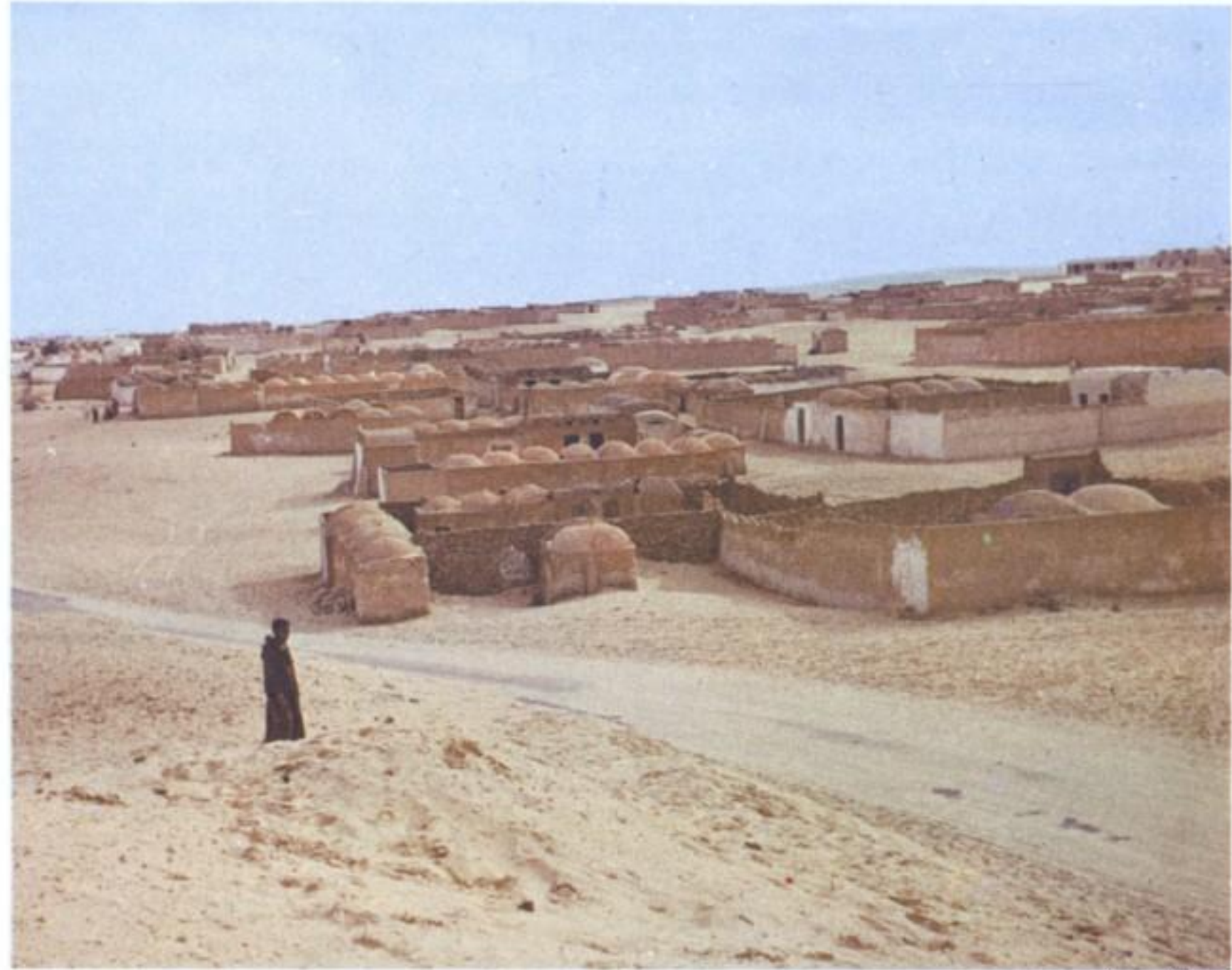
↑ باب مسجد في حميش .



ساحة .

ولقد نتساءل كيف أمكن للانسان أن تراوده فكرة الاقامة بهذه البقاع الصعبة . إننا لا نعرف اليوم بالضبط تاريخ إقامة الانسان في السوف ولكن يعود أصل بعض المساجد إلى القرن الخامس أو السادس عشر مسيحي والمفروض أن هذه البقاع كانت ملجأ مأموناً لسكان مغتربين وقبائل مسالمة . وبلاد سوف البعيدة عن كل المواصلات والتي تحميها حرارة الشمس وقساوة العواصف الرملية كانت تستقبل الرجال الأحرار من المقيمين أو الراغبين في ذلك ومن أشباه الرحل . وهؤلاء السكان الذين لم يملكوا عبيداً أبداً قد واجهوا قساوة المناخ ومشاق الحياة بروح من المساواة لا نظير لها . ولولا هذا التضامن الانساني الفعال لما استطاعوا أن يستقروا بهذه البقاع وأن يواجهوا مناخها الشاق . وهكذا كان الانسان إذا ما أراد أن يحفر غوطاً أو يبني بيتاً يستعين بسواعد جيرانه وهم لا يتلقون عن ذلك أجراً ما عدا الغذاء .

والواقع أن المياه موجودة على عمق قليل في جيوف القمم الصخرية التي تمتد عليها هذه المساحات الرملية الكبرى . وعوض أن يستقوا هذه المياه عن طريق الري فضلوا أن ينقلوا إليها



قرية سوف





بنايات حديثة في الواد .

في الضيعات المجاورة يستطيع الخطيب أن يرافق خطيبته إلى حيث تستقي وأن يكلمها بكل حرية .

والمشكل الرئيسي بالنسبة لوادي سوف لا زال يتمثل في الماء والرمل . وحتى إذا كان الماء في متناول الانسان فقد لا يكون صالحاً للشرب



شارع في الواد .

الأشجار والنخيل تمتصها من الأعماق حيث تركد وذلك خشية امتصاصها من الرمال لو أخرجت إلى السطح . وهكذا ينجع النخيل بين كثيبين في جوف اصطناعي . وهذا الجوف المستدير أو الاهليلجي الشكل هو ما يسمى « بالغوطة » (أو العمق) ويقوم الانسان نفسه بصيانة هذا الغوط وبتفريغه من الرمل عدة مرات في السنة . سواء بمناسبة غرس نخيل جديد أو تسميد القديم منه . ولوقاية الغوط توضع على محيطه حواجز قصبية أو من « ورود الرمال » . وتوجد داخل هذه الأجواف حفرة لكل نخلة حيث تمتد عروقها رأساً في رطوبة الرمال . ففي وادي سوف لا وجود لعملية الري بل هناك عملية تفريغ الرمال .

إن سكان وادي سوف لهم مثل سكان المزاب رحلتان : رحلة الشتاء المتمثلة في الإقامة بالقرية ورحلة الصيف المتمثلة في الإقامة بالحدائق قصد رقابتها وزرعها ومعالجة المزروعات . وفي ظلال النخيل أمكن غرس الخضر وحتى غرس التبغ غير أن زراعته صعبة وحساسة جداً . والملاحظ أنه لا يمكن أن تعتبر هاتين الرحلتين هجرة كما هو الحال في الميزاب حيث أنهما غير منتظمتين .

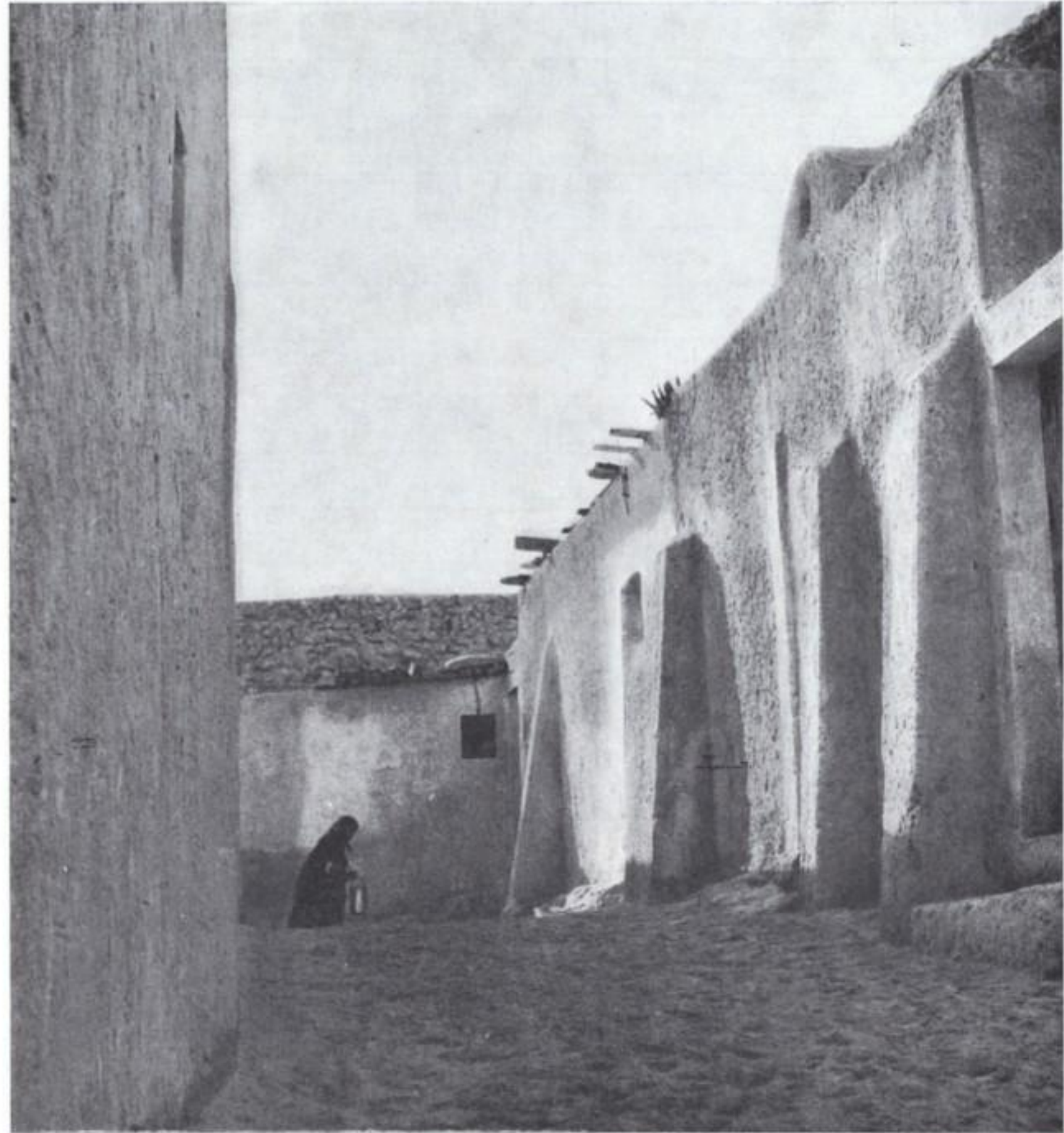
فقلما يضطر السكان عند ما يغادرون قريتهم إلى تعيين حارس بلدي مقابل أجر . وفي بعض القرى الأخرى فإن الرجال هم الذين يرتحلون إلى الحدائق تاركين أهلهم من ورائهم .

وليس هناك وحدة في أسلوب الحياة . فسكان وادي سوف من أصل متعدد وإن كانوا مسلمين فانهم يسوون مشاكلهم الداخلية حسب قضائهم الخاص . إن إقامة القبائل الجديدة تتم بالتراضي وكل قرية تحتفظ بعاداتها وتقاليدها مع إحترامها لعادات وتقاليدها . ففي عاصمة الوادي مثلاً لا تخرج النساء إلا محجبات بينما

وحتى للري نظراً لما يحتوي عليه من ملح . أن الشطوط المالحة والبحيرات الصحراوية التي نجد منها الكثير في وادي سوف تمتد أحياناً في باطن الرمال فتأتي على الحدائق وترغم على إنتقال قرى بأكملها . وبالرغم من هذا يمكن القول بأن قرى سوف على غرار القرى الزراعية بنيت دون تصميم معماري مسبق . وهي خلافاً لكل قرى الصحراء الجزائرية ليس لها حصون ذلك أن حصنها الحصين الطبيعي يتمثل في الظمأ . ولقد أسست هذه القرى أول الأمر من رب عائلة فتكونت نواة من بعض المساكن ثم تطورت وانتظمت بطبيعة الحال وبعد جيلين أو ثلاثة من الإقامة بهذه البقاع دعت الحاجة إلى بناء مسجد تقام فيه الصلاة وتسوى فيه المشاكل بعد أن أصبحت لها صبغة بلدية .

بيد أن القرى السوفية ليست عبارة عن منازل ملتحمة بعضها ببعض وتفرق بينها المسالك . فالأنهج

جامع سوف .
وحدة البناء أكيدة . ولكن لا تشبه إحداها الأخرى ، وجميعها فياضة بالسحر والروعة . ↓



↑ شارع في الواد .



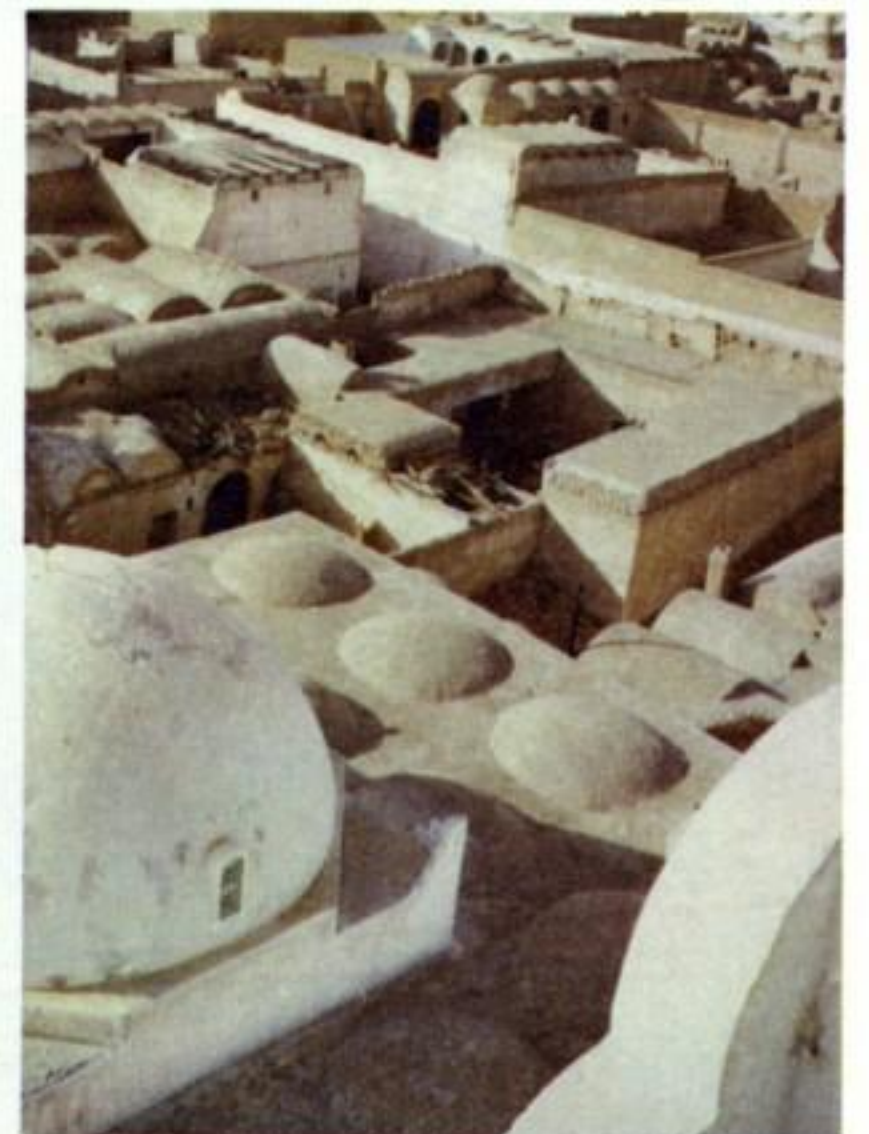
مرسومة وموجهة . وفي الجهة الجنوبية أعد السوق لتسهيل المبادلات . أما المنازل فهي متجمعة في الجهة الشمالية وتؤدي إلى كل منزل منها أزقة غير نافذة .

وتقوم هذه المنازل كما هو الحال بالنسبة لجميع المساكن الجزائرية تقوم حول فناء مشترك . وكل الحجرات مبنية على نمط واحد تعلوها قبتان أو ثلاث قباب أو في بعض الأحيان صفوف من القباب تشكل حجرة طويلة كما تقتضية العادة . وعلى إحدى واجهات الفناء تصطف البيوت الخاصة بالعائلة بينما تخصص واجهة أخرى للمونة وغالباً ما يوجد في مقدمتها رواق مغطى متوج دوماً بقباب على غرار مساكن المزاب . وهذا الرواق يقي النساء العاملات من حرارة الشمس . ويستعمل كذلك قاعة للطعام . أما الحجرات المخصصة للدواب فانها تحتل واجهة الفناء الثالثة أو قسماً منها . ويحصل أحياناً أن تخصص واجهتان لحجرات المونة والدواب وعندئذ يصبح الفناء داخلياً يؤدي إليه مدخلا ضيقاً يسمى بالسقيفة .

ويمكن أن ندهش لتحفة القباب النصف الدائرية ولانتظامها بالنسبة لكل مسكن . وهي وإن كان حجمها نسبياً ليست بالكبر الذي يفرضه الخوص المقوس . إن سر هذه القباب لمن البساطة العجيبة . فالبناء أو صاحب البيت المزمع بناؤه يغرس نصباً عمودياً في محور المكان الذي ستبنى فيه القبة ثم يعقد بهذا النصب جبلا من طول

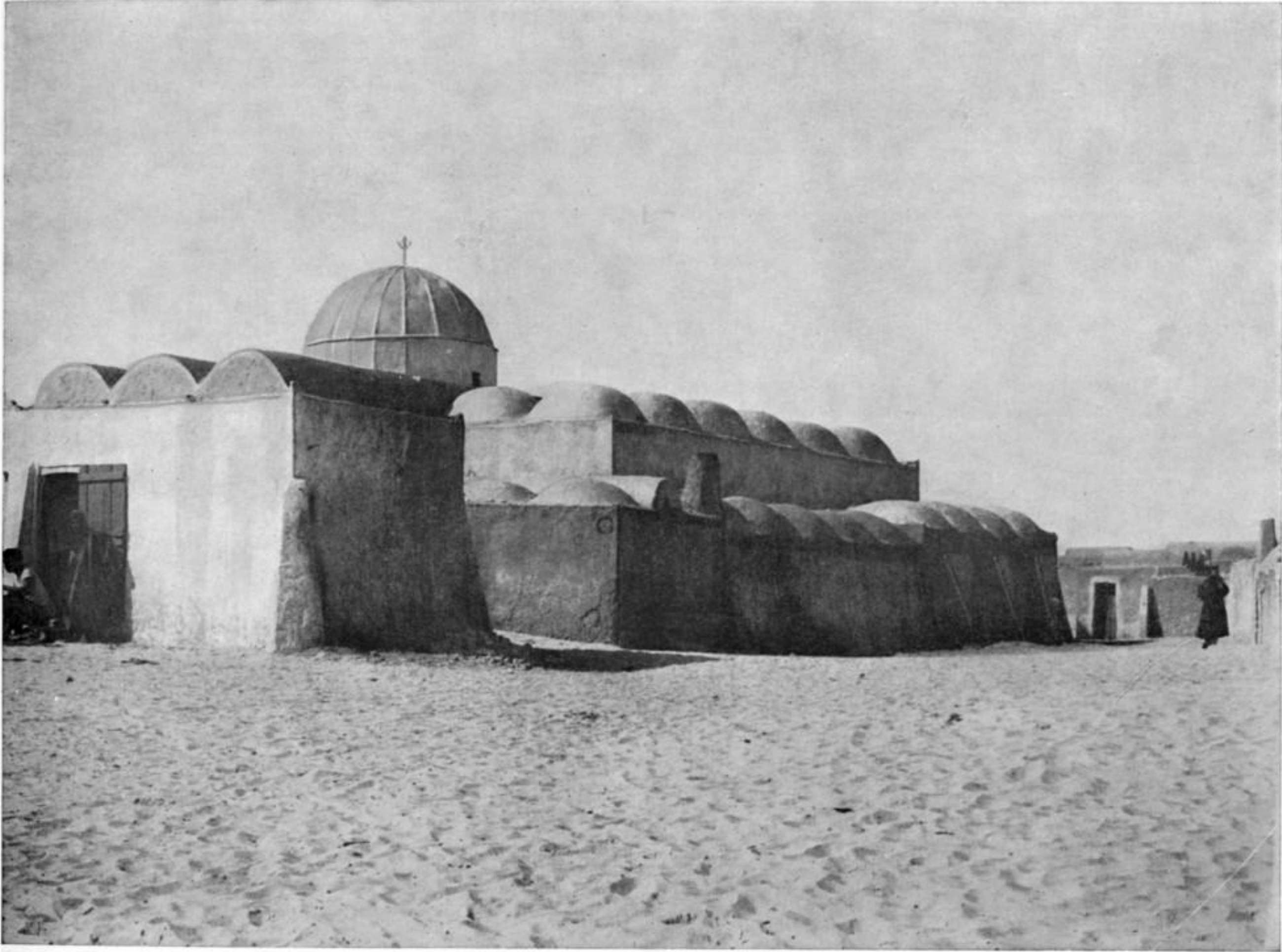


↑ هذا الدرج العجيب يصلح كمر من ساحة لأخرى .



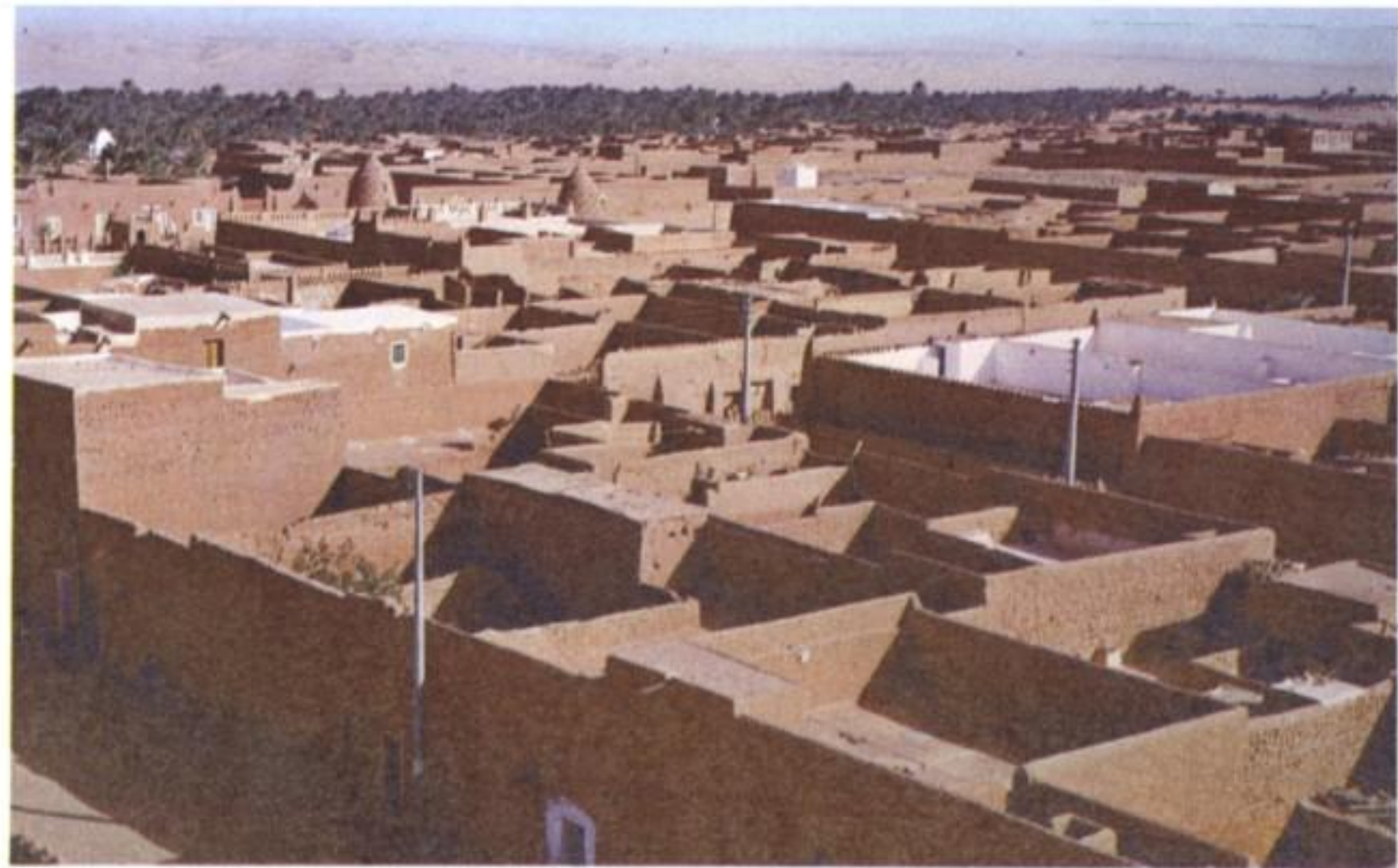
منظران للواد .

صفان طويلان من القباب بارتفاعات مختلفة . هذا
أيضاً جامع في الواد . صفاء في البناء وبساطة لا
تبعد أبداً المعرفة والعلمية ، حيث به قبة من
الطابع التركي .
هنا أيضاً تترأس البساطة .



شعاع الدائرة ويشرع في رسم الدوائر « بورود
الرمال » بيد ، ويده الأخرى يلحمها بملاط
الجبس . وبناء السقوف النصف الاسطوانية يتم
بنفس الأسلوب مع الفارق الوحيد وهو غرس
النصف أفقياً على مسافة متساوية بالنسبة
للجدران .

وحسب الأذواق والوسائل تدهن الجدران
والسقوف والقباب أم لا وقد يطلى هذا الدهن
باليد حيث نرى مثلاً آثار الأصابع في جدران
المزاب . وتمثل مرافق الحجرات في الأثاث
المبنى كالكوات والرفوف . وتوجد في الأفنية
« مشواة » تعلوها مداخن متنوعة الأشكال منها



المستدير والمخروط وبها فتحات مثلثة أو مربعة وتنتهي في أعلاها بحنية ذات أقواس .

ولقد احتفظت القرى السوفية بوحدة عجيبة فالمساجد فيها زاهية متنوعة لا زينة عليها سوى هيكلها الطبيعي . وهي مساجد ممتدة ، بها قبيبات مصطفة تخفي من تحتها الأعمدة الكثيرة وبها أيضاً قباب كبرى بنيت على النمط التركي . وهي بملامحها الظرفية تذكر بتلك الكنائس الأرثوذكسية اللطيفة الموجودة في جزر اليونان .

ومعجزة « سوف » تتمثل في أن الفن المعماري المقبول لا يبحث عنه في المباني القديمة والمهلهلة أو في المساجد الغابرة في القديم لأن الكل يحسن البناء في هذه المنطقة وكل رجل بمثابة مهندس معماري .

إن منطقة « القرارة » الموجودة في جنوب الصحراء الجزائرية لم تصبح وحدة جغرافية إلا بفضل الانسان والمناخ . وهي تشمل على القسم الجنوبي من العرق الغربي الأكبر الذي تمتد رماله هنا وهناك في كامل المنطقة . وحيث لا توجد الرمال تقوم الهضاب ذات الحجر الرملي فتحيط بارتفاعها (من 60 إلى 70 م) ما يسمى « بالسبخة » . والسبخة معناها الأرض المالحة . والواقع أن سطح السبخة لا يصلح لزراعة أخرى غير زراعة النخيل .

ويوجد بالقرارة ما يسمى بالوديان وليس المقصود هنا بالأنهار . فالوادي عبارة عن منطقة نباتية ويحيط القرارة شرقاً « عرق مقيدن » وهو سهل رملي وصواني ويحيطها غرباً « الحمادة »



مشط

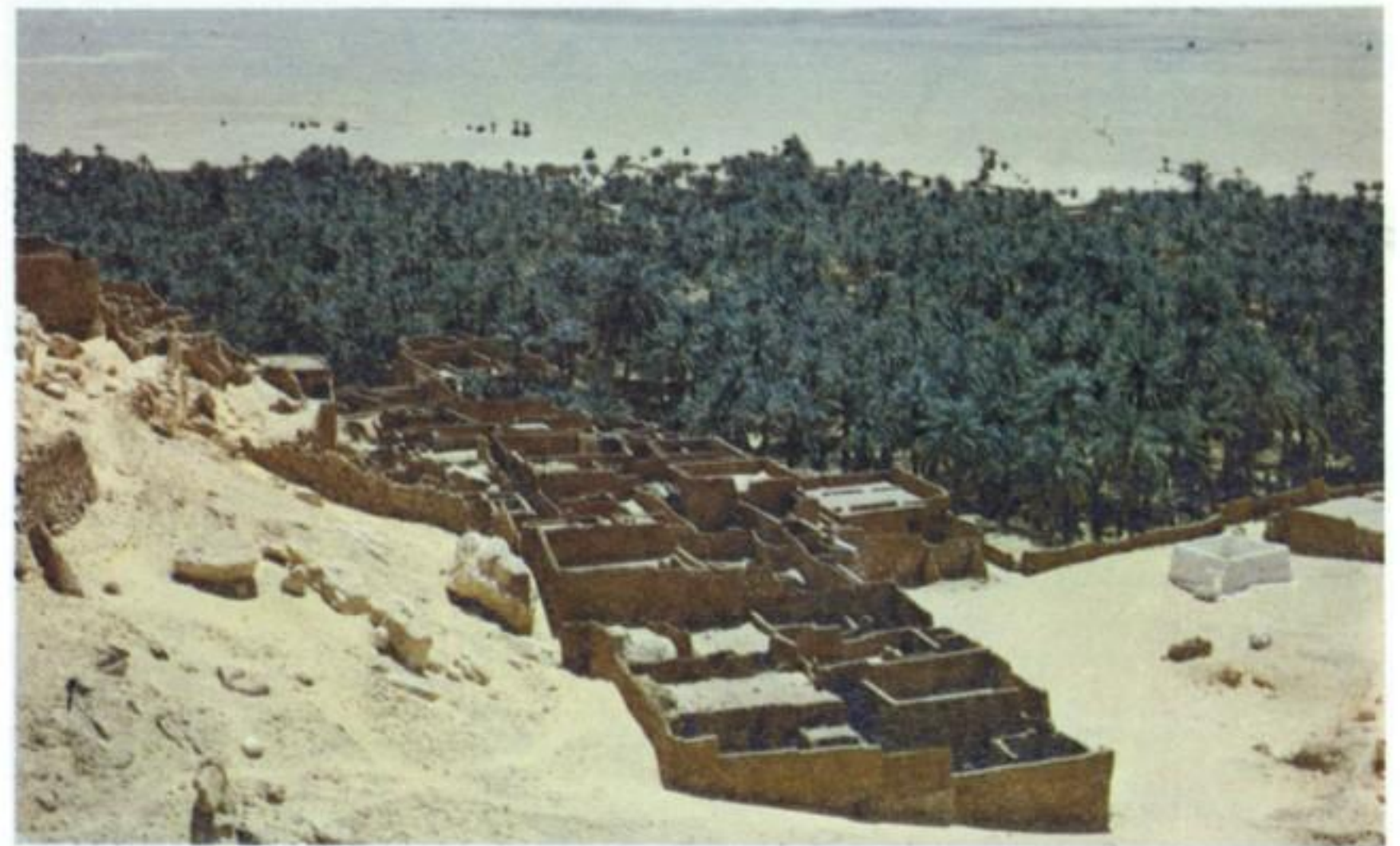
كل شيء « في هذه الناحية ، على حد تعبير مهندس معماري دولي . فني « القرارة » تصبح الطبيعة نفسها عمراً باعتبار أن الانسان هو الذي يثيرها . وتعتبر الفغارة وسيلة حاذقة للري عن طريق المنحدرات الطبيعية . والهدف منها هو تجنب عناء حفر الآبار . وهكذا تقام البساتين في منخفضات السبخة أو في حفر كبيرة تأتي إليها المياه الباطنية عن طريق مجاري منحدرية . وهذه المجاري باطنية حفرت على طولها آبار عمودية تستعمل لتصفية الفغارة عند المواسم الفلاحية . وفي مصب « الفغارة » وضعت مدراة لتوزيع المياه على المجري العميقة والضيقة . وتأتي هذه المجاري بالمياه إلى أصول النخيل وإلى ما يزرع في ظلها . لذا تتمثل شخصية هذه الواحات في كل العناصر التي تتكون منها « الفغارة » من مجاري ومدراة . وأحياناً تنفذ المياه الباطنية وللبحث عنها يلجأ إلى تمديد حفر « الفغارة » والزيادة في إنحدارها فتساب المياه بعيدة عن الزراعات وعندئذ تحفر الآبار لاستخراجها . وأحياناً أخرى يستحيل إعادة الري إلى نظامه فيضطر السكان إلى

وهي الأخرى صحراء حجرية لا نبات فيها . وتمتد سبخة « تميمون » الكبرى إلى الجنوب بسبخاتها الصغيرة وكأنها أغصان شجرة أو روافد نهر كبير .

وقد جاء في النصوص القديمة أن السبخة كانت عبارة عن نهر ضخيم تتدفق مياهه الجارية على مسافة عشرة أيام مشياً على الأقدام » . إلى درجة تستطيع البواخر الكبرى عبوره . والواقع أن العنصر الهام بالنسبة إلينا في هذه الصحراء هو عنصر خفي ونقصد به الماء . هذا العنصر الذي يكبد من أجله الانسان كل الكد .

إن الجهة السفلى لسبخة « تميمون » توجد على إرتفاع 192 م . ويوجد النخيل في السبخات وفي « العروق » مسند على الكتبان . وقد غرس النخيل على هذا النحو بسبب المياه والرياح .

فالماء هنا باطني يوجد تحت طبقتين من الرمل والملح وطبقة خزفية . أما نسبة الأمطار فهي من درجة 15 مم سنوياً والمياه الباطنية تجمع بطريقتين مختلفتين تارة ومتكاملتين تارة أخرى . وهما الآبار و « الفغارة » . ولا بد من التوقف عند هاتين الطريقتين « لأن الفن المعماري موجود في

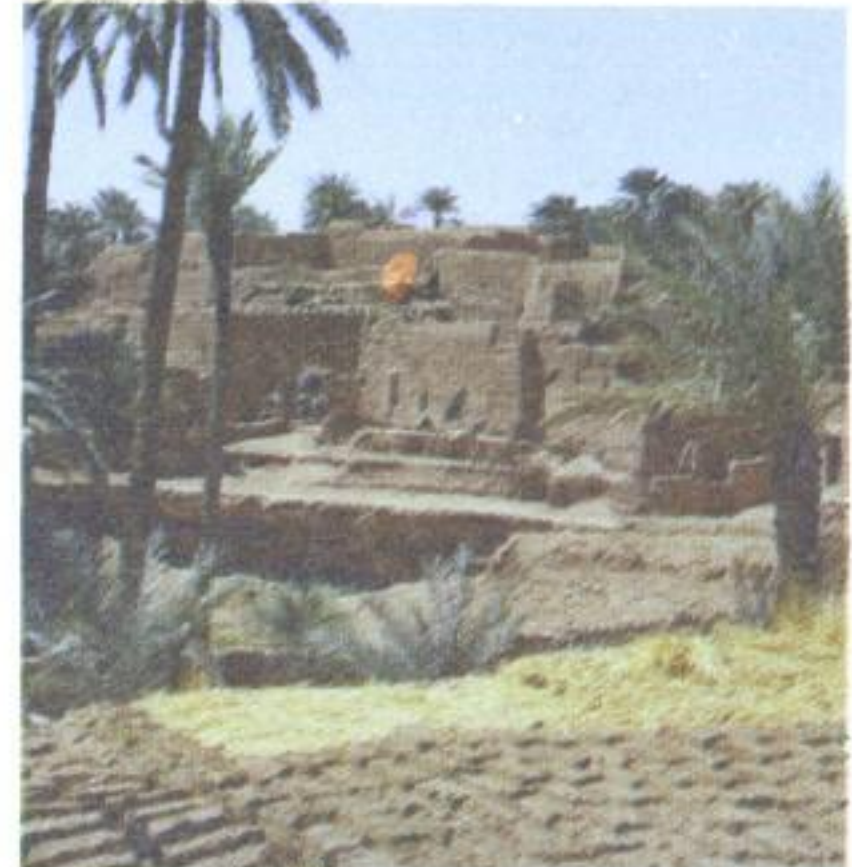




الدرج الخارجي عن الدار يؤدي إلى القسم من السطح المخصص للضيوف .

عائق إلا وتكدست الرمال بجانبه فتكون كثيراً وهكذا يتصاعد هذا الكثب في اتجاه شمال الشمال الشرقي فيصبح بدوره حاجزاً حامياً للنخيل ومغيراً في نفس الوقت لوجه المنظر الطبيعي للناحية . ولكن مع مرور الزمان يصبح هذا الكثيب يهدد البستان بالاختناق بحكم ثقل قاعدته . إن الانسان في القرارة في تنقل مستمر بحكم الأشياء وبحكم صناعته نفسها مثله مثل الطبيعة وذلك بالرغم من جهوده وحداقته .

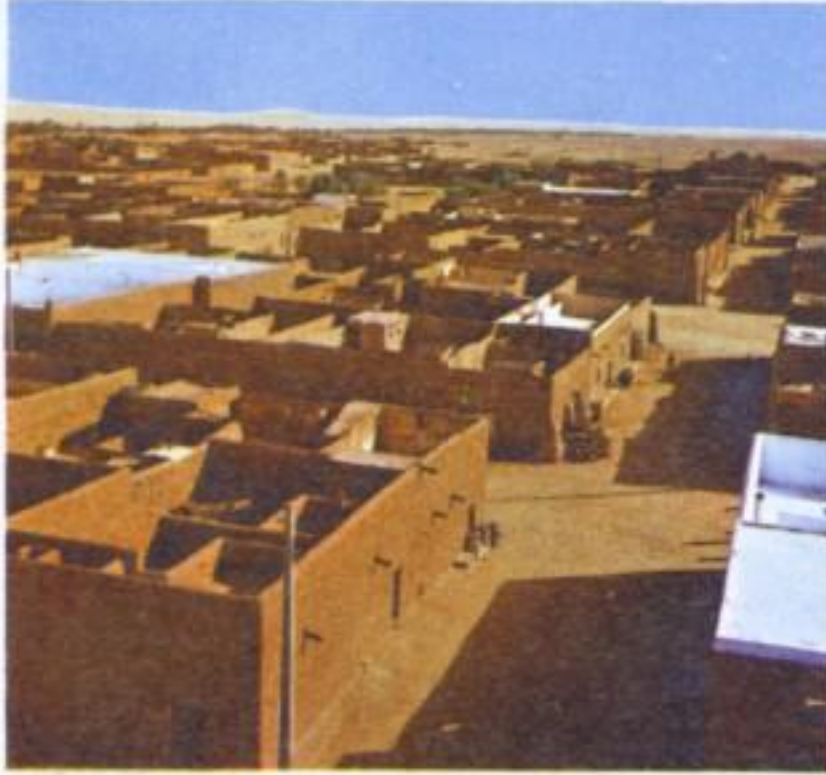
التنقل إلى جهات أرحم . وترجع أسباب هذا التنقل والهجرة أحياناً أخرى إلى عواقب صناعة الرجال أنفسهم المتمثلة في اكتساح الكثبان . وتتسبب في هذا الاكتساح الرياح العنيفة التي تهب طوال السنة من الشرق والشمال الشرقي . ولحماية نخيله من الترميل - لا سيما وأنها مغروسة في حفر أو في منحدرات - يقوم الانسان باحاطة بستانه بحاجز من الأخوص . ونحن نعلم أنه كلما اعترض الرياح الرملية



في ضواحي تميمون بيوت من النخيل .



قرية السبخة .



سطوح في تميمون .



قرية السبخة .

بل كل ما هنالك فجوات قوسية على جدارين صغيرين تذكر نوعاً ما بجسم الانسان . أما على ناحية الشارع فالباب موجود وهو جزء من « السقيفة » التي جعلت لحجب البيوت عن الأنظار . فالحجرات طويلة وهذا ترتيب جميل رأيناه بعد في « ازدراتن » وفي قصبة العاصمة . ولكن إذا كان عرض الحجرات يتوقف على متانة أعجاز النخيل فليس هذا من قبيل الحصر . فإذا ما أراد أهل قرارة حجرات أكثر عرضاً وضعوا وسطها ركيزة قوية .

وفي سقف الحجرات أعدت فتحة - نظراً لانعدام الأبواب - تكفي لخلق التهوية المطلوبة . أما المطبخ فهو موجود في الهواء الطلق وذلك لتفادي مشكل الدخان .

ومعلوم أن هذه التحويلات بطيئة غير أن الانسان ممزوج بهذه التيارات القوية فيشعر بعدم الاستقرار ومن ثم التنازل عن كل مفاخرة وهذا ما نشاهده في زهد العمران الجزائري هذا الزهد الذي ليس نتيجة فقر وعوز .

إن مساكن « القرارة » ذات تصميم مستطيل وهي تحيط فناء داخلياً كما هو الشأن بالنسبة لكل المنازل الجزائرية . وتبلغ درجة الحرارة في هذه الجهة 59 وهذا ما يفسر بدون شك عدم وجود الأبواب بين البيوت وبينها وبين الفناء .



سقف رائع من النخيل .



شارع صغير .

حتى تخالها قناة حفرتها المياه لولا أن أبواب المنازل تنفتح في مستوى منخفض جداً .

ونجد في القرارة أنواعاً شتى من القرى فهناك القرى المتبعثرة التي يوجد كل منزل منها بالقرب من بستانه (كل البساتين لها شكل متوازي الأضلاع أو شكل مستدير أو أهليلجي) والقرى المتجمعة حيث تشكل بساتينها حديقة كبرى قريبة منها . كما أن هناك نوعين من التنظيم لهذه القرى فالقديمة منها لها في قمته « قصبة » مشتركة أو حصن لخزن الحبوب والمؤن وليس للقرى الأخرى هذا المخزن المشترك بل لكل دار مخزنها الخاص . والقصبة عبارة عن مدينة داخل المدينة باعتبار أن كل عائلة تملك فيها حجرة وهناك أفنية تؤدي إلى هذه الحجرات . وهذه القصبة

أما التربة فهي ضرب من الترف الزهيد تجدد باستمرار . وهي تربة برتقالية اللون تمتاز برطوبتها . والسقوف تحمل سطوحاً يقام بها مساء ولا تشوب هذه الإقامة شائبة نظراً لانعدام الأمطار فالسطوح إذن عبارة عن مقام . وهناك حجرة الاستقبال وحجرات أخرى تفصل بينها قواعد مرتفعة كما هو الحال في الميزاب . وفي الفناء مدرج يؤدي إلى السطوح .

وفي القرى التي تحميها الكثبان تارة وتهدها أخرى نجد بين المنازل خاصية مشتركة وبلاد القبائل ألا وهي « الجماعة » أو بالأحرى دار الجماعة . وهي ساحة صغيرة يعلوها سقف أو طابق بها مقاعد للاجتماعات . وحتى الشوارع نفسها ضيقة وترتبطها محفورة حفرًا مائلا وعميقاً



قصبة في القرارة



↑ حصن رقي .



قصة .



→ ملاط من وحي إفريقي في جامع تيميمون الكبير



بعلوها وضخامتها تضيء على القرية مظهراً من مظاهر قرى القرون الوسطى .

وكما تدل الصور على ذلك فإن هناك فرقاً مفيداً بين الفنون المعمارية الصحراوية مثل القرارة ووادي سوف والمزاب .

إن فن تميمنت يعتبر تقريباً نموذجاً لهذه الفروق الخاصة بعمران الجنوب الجزائري حيث نجد ملامح من هذا الفن في كل من تاغيت (الساورة) وجانت (تقرت) . إن زهد المساكن وتشفها لا يقلل من جمالها . وبصفة عامة فإن ترتيب البيوت وتنظيمها شبيهان كل الشبه بما نجده في المنطقة كلها بالرغم عن اختلاف أدوات البناء (الحجر أو الطوب) وهذا ما يجعل من القرارة وحدة معمارية مع انفرادها بطريقتها الخاصة في الري . أما وادي سوف الذي له ظروف جغرافية مشابهة فإنه قد تبنى طريقة القباب لتسقيف المنازل وفي هذا تكمن شخصيته اللطيفة غير أن السطوح لا تستعمل في سوف للاقامة كما هو الحال بالنسبة للقرارة والمزاب .

وهذه المنطقة الأخيرة صغيرة جداً من الناحية الجغرافية لكنها تنصف بمحاسن أكبر حيث أن كل مسكن فيها يتميز بعدد من التفاصيل الوظيفية يعود أصلها الفكري بعيداً في التاريخ .

إن القرارة التي يسكنها الزنات والعرب والجراطنة الذين استقروا بهذه الجهة في فترات معينة تفصل بينها عدة قرون تحتفظ بطابعها الخاص الأصيل .

إن منطقة الأوراس عبارة عن منطقة جبلية كبرى تبلغ مساحتها ألف كلم² وجبال الشلية (2.329 م) من أعلى الجبال في الجزائر .

درج يؤدي إلى مسكن .

والمدين الكبرى التي تحد هذه المنطقة هي
خنقة سيدي ناجي وخنشلة وباتنة وبسكرة وأقرب
المدين الكبرى في الشمال الشرقي هي مدينة قسنطينة .
ويقطع هذه الجبال واديان : وادي العبيد
ووادي الأبيض وهما يجران معهما حياة حثيثة لا
ترى من القرب أحياناً نظراً لعمق هضابهما .
وما عدا هذان المسيلان تبدو الأوراس عبارة عن
سلسلة من القمم تعلوها الثلوج قسماً من فصل
الشتاء وتحيطها غابات شجر الأرز . أما من
الناحية الجنوبية فهو عبارة عن صحراء تمتد على
مدى الأبصار بجبالها الجديرة باثارة اهتمام علماء
طبقات الأرض والجغرافيا .

وهذه المنطقة التي تتعرض لكل أنواع
الانجراف لها شخصية قوية . فاذا ما نظرنا إليها



↑ القلعة ، تكاد لا تظهر ، تشبه بالصخور ، وهي المركز الحصين في تيفلغل



القادم من الجنوب توقفه مرتفعات الأوراس

من الهضاب الجنوبية تبدو وكأنها حاجز بنفسجي كبير حاد الانحدار لا نبات فيه . وإذا ما تقدمنا قليلاً في هذه المسالك الصعبة الخيفة وجدنا انحداراً عمودياً توجد بمساعدته الحياة . وإذا واصلنا سيرنا في هذا الاتجاه وجدنا أنفسنا على حافة جبل وأمام منظر جديد : فعلى عمق 30 و 40 متراً نرى مجاري المياه الممزوجة بورود الدفلى تنساب بين النخيل وفي ظلال هذا النخيل تمتد البساتين . وفي جهة الوادي المتعاقبة يقوم جبل حاد الانحدار به مساكن تحسبها أوكار نسور لا تكاد تميزها من التربة حيث اتخذت لونها ومادتها .

لكن المفاجأة لم تنته فهذه أصوات الأطفال ترتفع من هذا الجبل الشامخ وإذا نظرنا تحت أقدامنا تبين لنا أننا فوق سطح منزل في أسفله فناء يؤدي إلى سطح آخر . فالقرية كلها معلقة في الجبل والمسالك الصعبة - التي تثير الرعب في قلب المرأة الحضرية - تؤدي إلى الوادي والبساتين ويسلكها الرجال والنساء والأطفال يوماً للالتحاق بمكان عملهم .

من شرفة غوفي نرى القاعات الفسيحة . إقامة صيفية . ومن تحت يبدو وادي النخيل .





ساحات وسطوح ، تؤدي إليها آلاف من الممرات
القرية قريبة : النخيل .

الشرق وواصل زحفه حتى المحيط وعند رجوعه وقع
في كمين نصبه له كسيلة فمات في المعركة . ثم
جاءت الكاهنة التي تشخص روح الأوراس
الاستقلالية فهزمت حسن بن نعمان على أبواب
مسيكينة . ولا بد من ذكر هذه الصفحات التاريخية
التي سبقت دخول الاسلام . وفيما بعد وجد
الفرنسيون مقاومة شديدة في الأوراس ومعقلاً ثورياً
حتى الاستقلال الذي كافحت من أجله هذه المنطقة
كفاحاً فعالاً .

وتعتبر بلاد الأوراس وحدة تاريخية
وهذا أمر يهم دراستنا هذه . ويمكن القول
بأن الأوراسي معروف بصلابته وكرهه
للأجنبي . وقبل أن يتوصل الاسلام إلى تهذيب
وتهدئة الرجل الأوراسي ما أفلح الرومان
والبيزنطيون والواندال في إحتلاله . ولقد فشل الفتح
الاسلامي الأول في بلاد الأوراس . إن سيدي عقبة
الشخصية الجليلة في تاريخ الجزائر بعد أن أوقع
كسيلة الرئيس الأوراسي في الأسر أخذه معه نحو

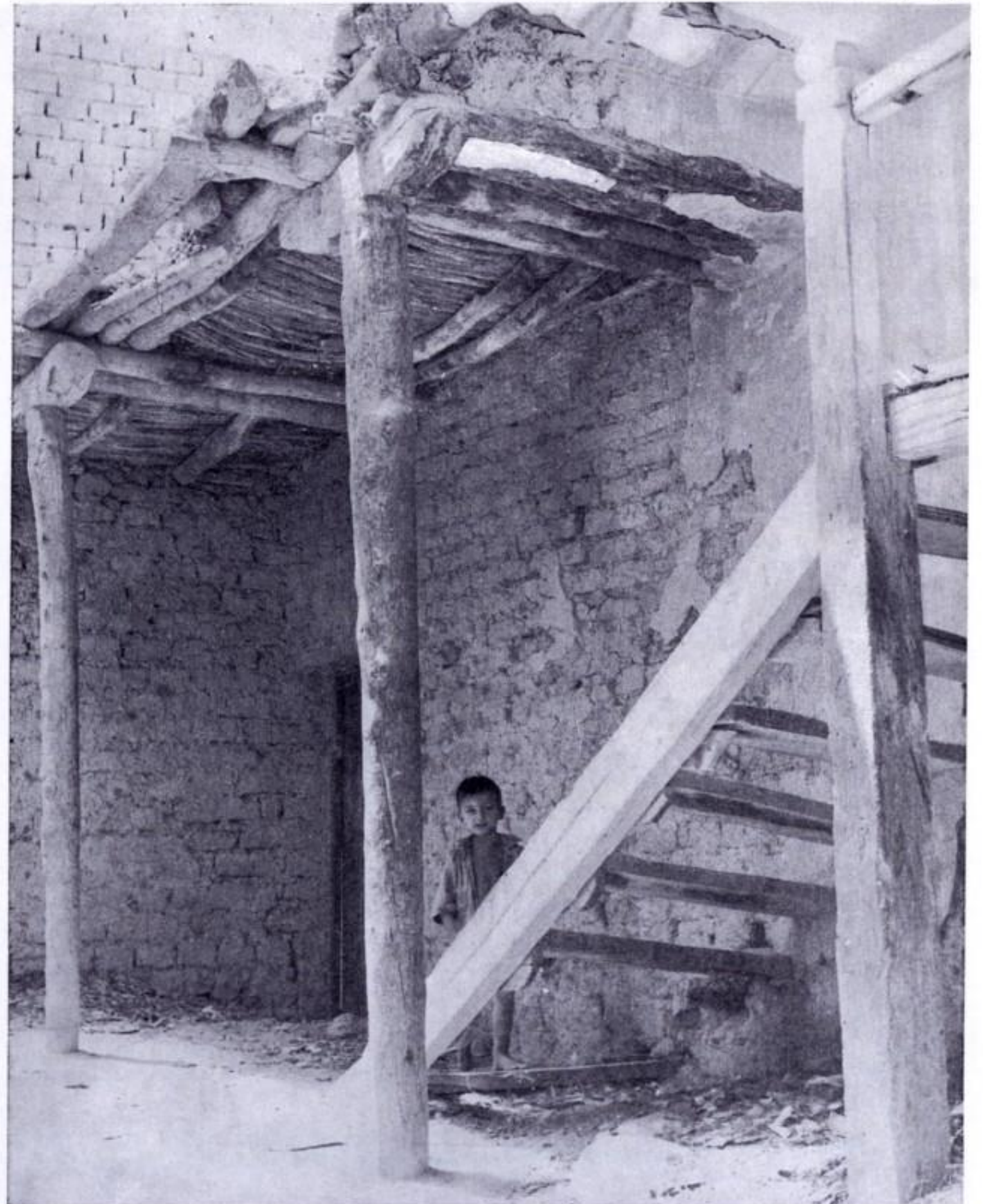


قرية قريبة من المنعة .

ولقد بقي الأوراس يتكلم البربرية مثل بلاد القبائل . وإذا كانت فوارق البناء موجودة بين الشمال والجنوب فهي فروق تتمثل فقط في مادة البناء : ففي الشمال تستعمل الحجارة : يحشي الفراغ الموجود بين حائطين بحجارة ممزوجة بالأسمت . ولتتمتين الجدار توضع طبقة من الأغصان المتقاطعة متراً بعد متر . وفي أواسط المنطقة يستعمل اللبن قاعدة للجدران . أما في الجنوب فان البيوت كلها من الطوب . لكن المظهر العام للقرى يبقى هو هو لا يتغير .

وهذه الهندسة المعمارية « مندمجة تماماً مع الطبيعة » على حد تعبير المدارس العصرية وهذا الاندماج يعود بدون شك إلى التاريخ . فالقرى الأوراسية لا ترى إلا في بعض ساعات النهار أو بعبارة أخرى لا تظهر للعيان إلا عند طلوع الشمس وغروبها . أما في منتصف النهار فهي لا تميز من الجبال والصخور أو الرمال . فلا تكاد تفرق بين المنازل المصطفة طولاً والصخور التي بنيت منها فالقرى كلها عبارة عن جبل من جبال الأوراس . والقرى كما أسلفنا معلقة كلها في رؤوس الجبال لأسباب تاريخية والدفرة تتكون من هذه القرى . والدفرة كما هو الحال في القرارة تلتف حول المخزن الذي يمثل الحصن الحصين في حالة إعتداء .

والفناء كما هو الأمر في كامل القطر الجزائري يؤدي إلى البيوت ، لكنه هنا يؤدي إلى الشارع خلافاً للمناطق الأخرى باستثناء بلاد القبائل وليس هناك وجود للسقيفة . والنساء سواء في الأوراس أو في بلاد القبائل يخرجن سافرات وقانون الشرف أو الاحترام يتم بالتفاهم والوفاق بين العائلات التي تتعارف بعضها البعض أو بينها صلة القرابة . ومن جهة أخرى فان القرى الجبلية ليست على غرار القرى الصحراوية



جدران من الطوب ، جسور من النخيل ، شرعة ودرج رواق إحدى القلعات .



↑ قلعة روفي .

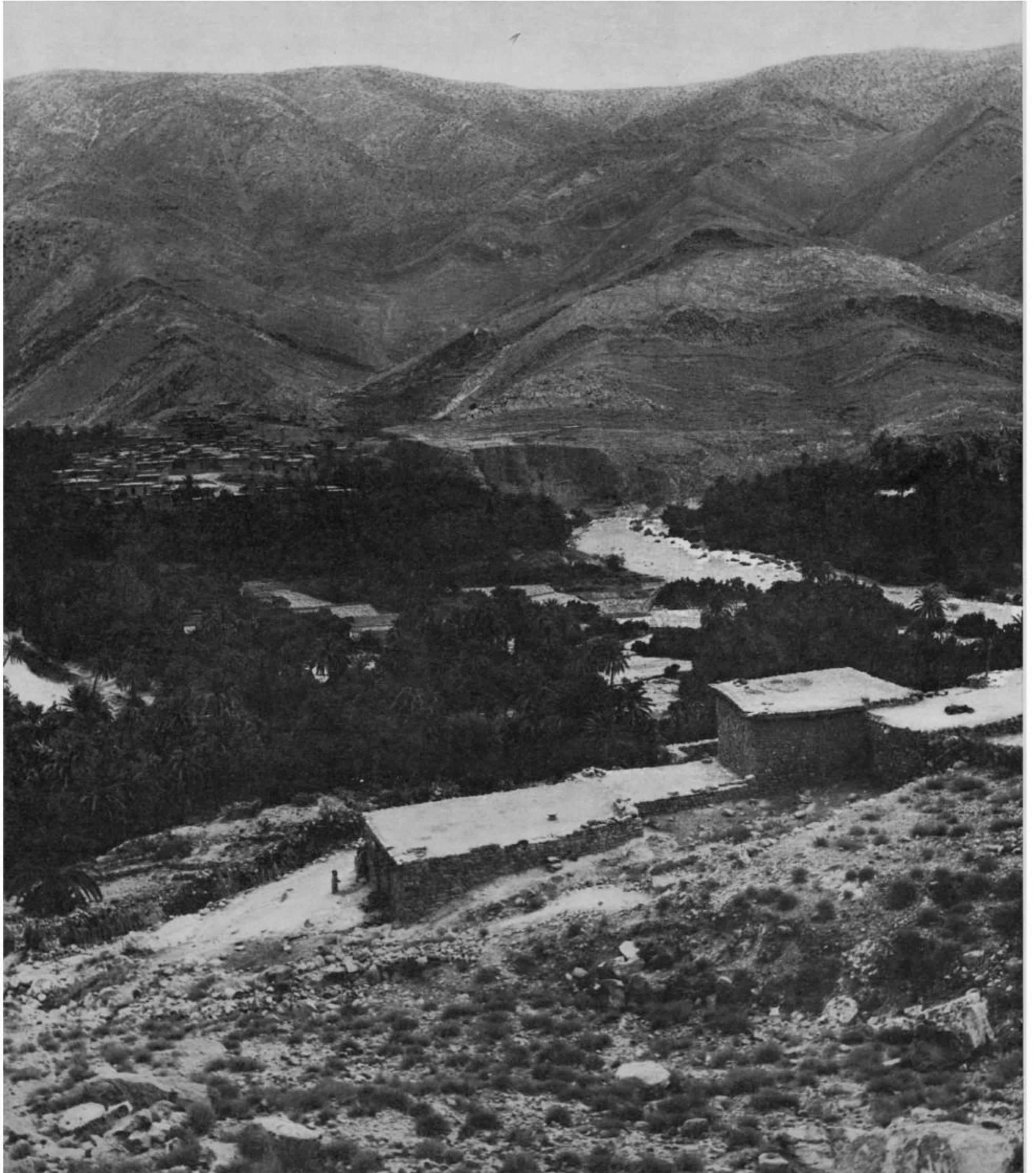
قرى تجارية يقصدها الرحالة لذا فلا مجال هنا
للتخوف من الأجانب .

والسطوح المصطفة على شكل الدرج تشبه التربة
والأرض تماماً إلى درجة أننا ندوسها دون أن نشعر
أنها سطوح لا سيما وأن الأعشاب تنبت عليها .
فهي في نفس الوقت عتبة وممر ونهج في بعض
الأحيان . وتستعمل هذه السطوح للقاءات حيث
تقضي النساء عليها قسماً من النهار وكذلك الرجال .
وعليها أيضاً يجفف التين والتمر والقلفل وتستعمل
أخيراً مرقصاً بمناسبة الأفراح .

ومن هنا ندرك ما يتطلبه هذا السطح من
متانة وقوة . فهذا السقف والسطح في آن واحد

عند ما تهدم الدار ، تتحول إلى جبل .
ككل الأشياء الطبيعية تعود إلى الطبيعة ،
ببساطة وكلية .





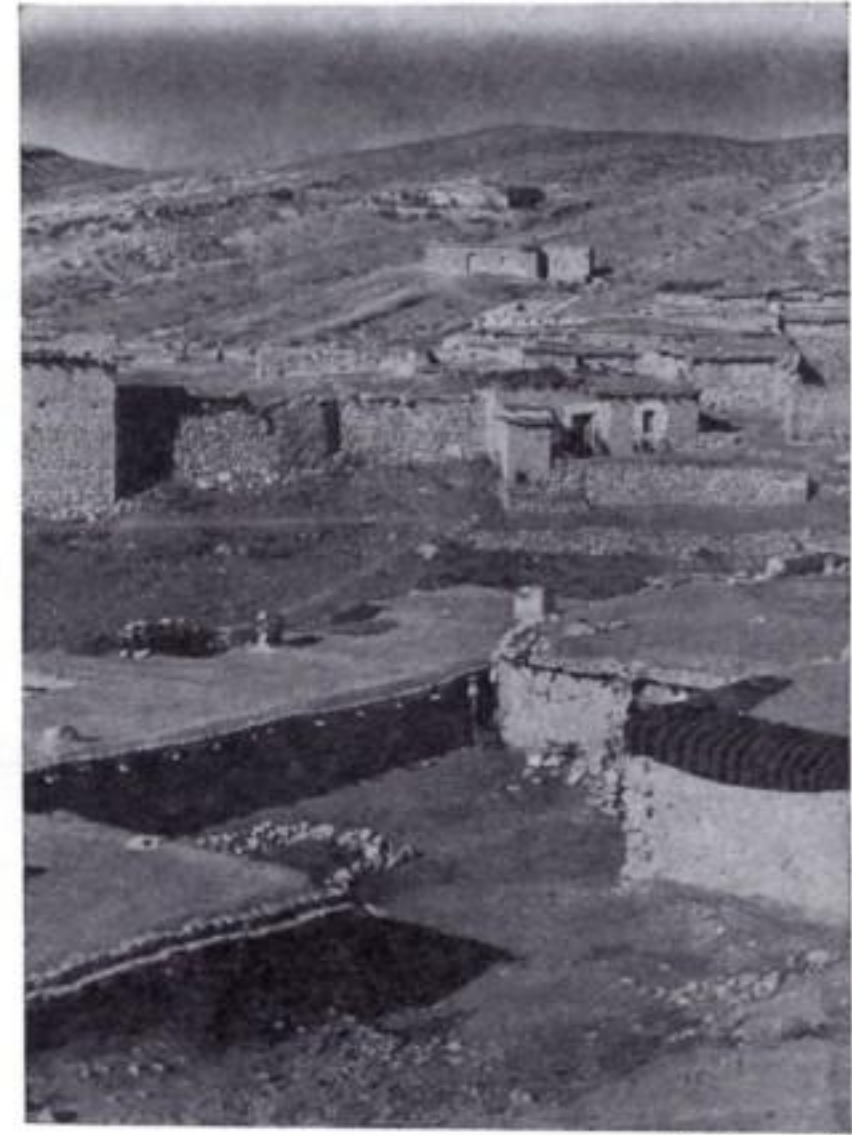
يعتمد على ركائز خشبية متينة من شجر النخل أو الأرز ومدعمة في أساسها بالحجارة . وتحمل هذه الركائز عارضة أفقية تمتد عريضاً على طول البيت . وتوضع الخشبات في كلتي الجهتين على الجدران وفي الوسط على أعلى تاج الأعمدة . وفي البيت العلوي توضع الركائز الحاملة للسطح فوق الركائز الحاملة للسقف تماماً . ويشتمل الطابق عادة على حجرتين مغلقتين وبينهما حجرة ثالثة أوسع منهما ومشرفة على الخارج . وهي حجرة صيفية يدخل إليها بواسطة مدرج خارجي .

و « الهندسة المعمارية موجودة هنا في كل شيء » فالسرير الأوراسي يكاد لا يكون أثاثاً بل هو بناء يتمثل بجدار صغير مواز للحائط توضع

عليه خشبات صغيرة ملصقة بالجدار . ويفرش هذا السرير الخشن بأغصان الدفلى وطبقة من الحلفة وسماط . وهناك أثاث آخر لا يقل أهمية يتمثل في آلة النسيج . وتوضع هذه الآلة موازية للجدار التي تنكئ عليه الناسجة بحيث تكون مقابلة للباب حتى يتسرب إليها النور . وتصنع هذه الآلة من نفس الخشب الذي يستعمل للسرير والأعمدة والأبواب . وتحفر في الجدران مشكاة تستعمل استعمال الدواليب . وتصنع رفوف هذه الدواليب من الخزف حيث تضع فيها المرأة الأوراسية أمتعتها ومونها .

وللنوافذ طابع خاص من الشمال إلى الجنوب

سواء أكانت البيوت من حجر أو طوب وهذا ما



قرية واد العبيد

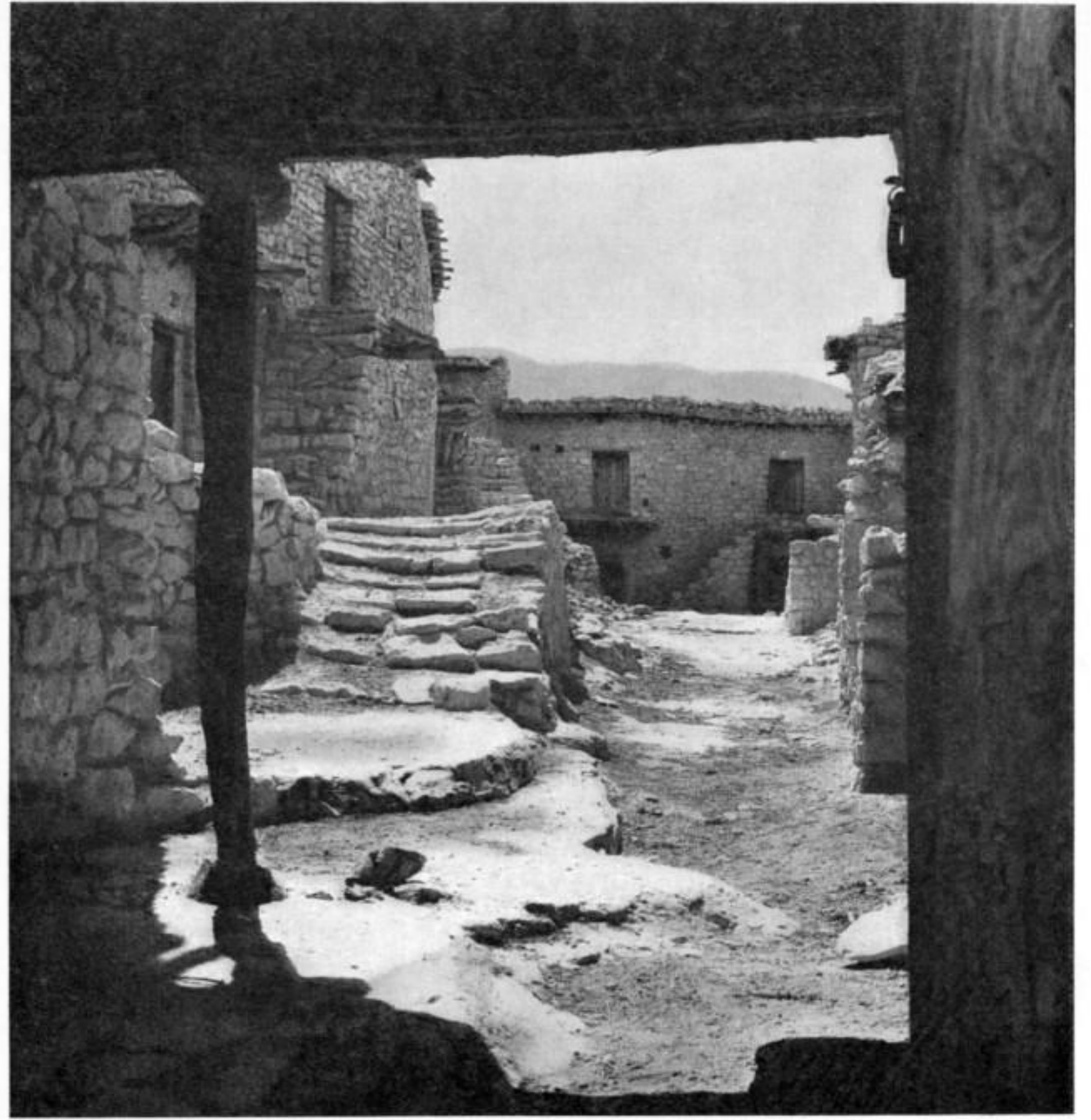


تكوت

يزيد في وحدة الأوراس القوية وهي نوافذ ذات فتحات مثلثة صغيرة نسبياً ومتناسقة بينها .

فتارة تتداخل المثلثات المستقيمة والمثلثات المقلوبة وتارة أخرى تكون هذه المثلثات عجلات مصطفة . وتمثل هذه الأشكال زخرفة لا بأس بها . ولا توجد زخرفة أخرى غير الأسدية لكنها كافية لاعطاء مظهر زاهي لهذه البيوت المتينة التي لا فتحة لها سوى هذه النوافذ والأبواب .

وإن كان هذا العمران عمراناً جبلياً فهو أيضاً فن شخصي واحد . وقبل إثني عشر قرناً بنى سكان هذه المنطقة ذلكم الأثر العجيب « المدراسن » ولعلمهم كانوا يعيشون آنذاك في هذا العمران المتين الذي تمت حصانته من الرجال والحر والقر .



داخل قلعة روفي .



طرق طبيعية وديار محصنة إنه وجه الأوراس الحقيقي



الأوراس

سكيكدة . وتحده هذه المنطقة الكبرى جنوباً مدن سور الغزلان وبرج بوعريج جميلة . وبالرغم من قساوة الحياة الجبلية فان كثافة السكان في هذه الجهة من أقوى الكثافات في الجزائر . وهي بلاد فلاحية فقيرة أهم إنتاجها الشعير والقمح والتين والزيتون .

وفي بلاد القبائل الكبرى التي يحق أن نسميها القبائل العليا يبلغ ارتفاع جبل جرجرة 2.300 م وتغمره الثلوج شتاء . وجبل جرجرة محاط بمضيقات وقمم جبلية كثيرة الانحدار . وعلى كل قمة من هذه القمم توجد قرية يرجع أصلها إلى غياهب الزمن . إن بلاد القبائل والأوراس يعدان من أقدم الجهات من حيث

ولقد أهمل المهندسون والمعماريون اليوم أسلوب المباني الفاخرة التي تشاهد من بعيد بفضل تباينها مع ما يحيط بها . إن الأسلوب الحديث يتمثل في الاندماج مع الطبيعة والمحيط إندماجاً كلياً كما نشاهد ذلك من الشمال إلى الجنوب على امتداد 11.000 كم² من هذه السلسلة الجبلية المفروشة بالغابات الثلجية والصحاري المنضدة .

وهناك منطقة أخرى لا تقل شخصية وأهمية عن الأوراس ألا وهي بلاد القبائل أو بالأحرى القبائل الكبرى والقبائل الصغرى اللتان يفصل بينهما وادي السومام .

ويبتديء الساحل القبائلي على بعد بضعة كلمترات من العاصمة ويمتد حتى مدينة



الاستقرار البشري . ومن السهل جداً أن نشعر بالأواصر التي تربط بين هذه القرى .

ووجود القرى على قمم الجبال يستجيب لمتطلبات الدفاع . ولسبب آخر يتمثل في أن الحياة على السفوح غير سليمة . والعجيب أن سكان القبائل يعهدون بحراسة منازلهم وأرزاقهم وحدائقهم إلى الطبيعة نفسها حيث نراها محاطة بحواجز شجر الهندي الذي تفوق نجاعته الاسلاك الشائكة .

إن مدن سور الغزلان والبويرة ودلس وجيجل جميلة تشهد كلها بمرور الرومان لما خلفوه من آثار .

إن مدينة « جميلة » التي بقيت تقريباً على حالها والتي هي بالنسبة لبلاد القبائل بمثابة تمقاد وليس بالنسبة للأوراس فانها تختلف عن هاتين المدينتين بطابعها الخاص الذي يجعل منها مدينة قبائلية صغرى في وكرها الشامخ بين وادين وبشوارعها الضيقة . وعلى أعلى الأعمدة تشير الفيضاء إلى السقوف ذات المنحدرين المغطاة بالقرميد على غرار منازل الجهة كلها . ولا شيء يدل على أن سكان القبائل قد تأثروا بالحضارة الرومانية تأثيراً خاصاً لا سيما إذا عرفنا مدى تعلقهم بالاستقلال . وإذا كان حوض البحر الأبيض المتوسط مهداً للحضارة اللاتينية واليونانية فهو بالمثل بالنسبة لهذا البلد القبائلي المتأصل في القدم هذا البلد المسلم الذي يخضع نمط المعيشة فيه لقوانين قديمة ليست بالقوانين الرومانية .

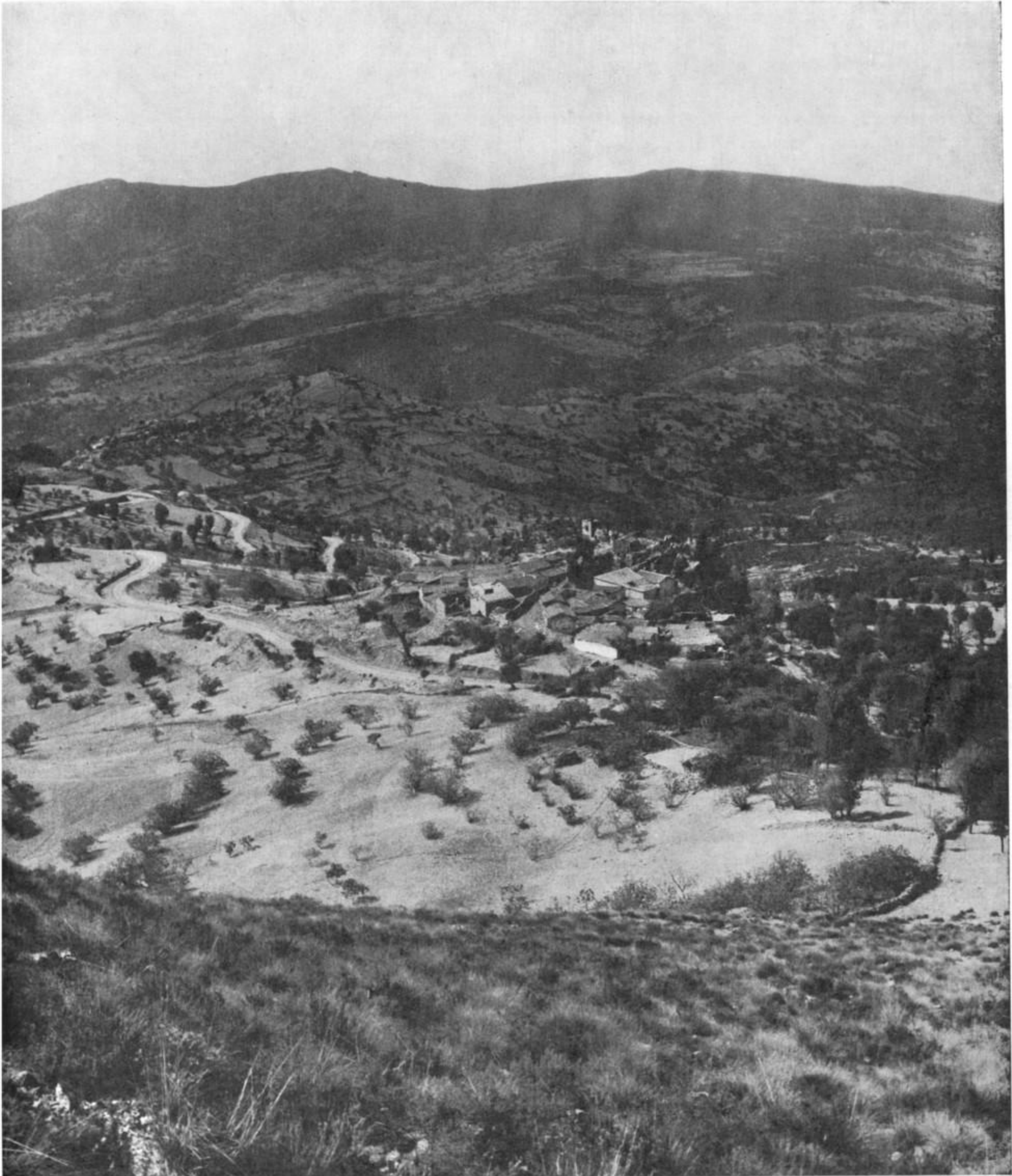
وهذه القوانين وهذا النمط في المعيشة قد أثرا تأثيراً قوياً على الفن المعماري في هذه المنطقة .

جرجره تتمزق . فوق القمم .

حيث توجد ألف قرية .

هي المنطقة الأكثر سكاناً في الجزائر :

بلاد القبائل .



قرية قرب (فوناسيونال) .



واجهه تتخللها فتحات .



قرية في بلاد القبائل

إن النظام الأبوي قد أتى بعنصر هام في تكوين القرية . ففي الجهة كلها لا يقال : أنا أسكن الحي الفلاني أو القسم الفلاني من القرية « بل يقال : أنا من حوش فلان » . وليس المقصود بالحوش هنا هو ذلك الفناء الصغير بل الفضاء المركزي الذي تلتف به عدة مساكن لأعضاء العائلة الواحدة المتزوجين الذين يخضعون لشيخ العائلة لذا تسمى القرى « بأولاد فلان » .

وعند ما تكبر القرية وتوسع يتعين عندئذ بناء المسجد . ويبنى المسجد بجانب القرية وتشيد حوله المنازل شيئاً فشيئاً حتى يصبح المسجد مركزاً



الجميلة .



حماية طبيعية : الأسلاك القبائلية . تسمى « التين البربري » .

لها . وبالقرب منه تخصص ساحة للجمعية أو الجماعة . ويواجه مقر الجماعة الطبيعة أو الناحية الخارجية وفي بعض الأحيان يعلو هذا المقر سقف أو طابق مثل ما هو موجود في القرارة وتوجد به مقاعد على طول الجدران بها بريق من كثرة الاستعمال ويعتبر هذا المقر مركزاً حيويّاً في القرية . حيث يجتمع فيه الشيوخ وأرباب العائلات في أوقات معينة فيناقشون شؤون القرية ويعالجون المشاكل القائمة بين العائلات ويبرمون عقود الزواج . كما تستشار الجماعة في الأمور . وليست الجماعة محلاً خاصاً ومغلقاً . بل هي محط الرجال وجزء لا يتجزأ من حياة القرية . فلا يجتمع الشيوخ على إنفراد بل بالعكس فهم يشاركون في كل أوجه نشاط القرية وفي نفس الوقت يمكن أن تتحول الجماعة إلى مجلس تناقش فيه المواضيع التوحيدية والفلسفية وغيرها .

فالمميزات الثلاثة للقرية القبائلية تتمثل إذن في وجود القرية على رأس الجبل وترتيب بيوتها حسب الأفنية المتعاقبة وأخيراً جماعتها . إن الوحدة البنائية هي الأخرى عامل من عوامل شخصية القرية القبائلية . فالمساكن في بلاد القبائل مشيد خارجها بالحجارة وهذا يفرض على البناء صرامة كبرى كما هو الحال في الأوراس لأن عمله سوف يبقى ظاهراً للعيان في كل تفاصيله . وكما هو الأمر في القصبة وفي المزاب فقلما نجد نوافذ تطل على الشارع حيث أن الفناء يكفي لدخول النور وأشعة الشمس والتهوية بل نجد بدل النوافذ ما يمكن أن يسمى « بالنظرات » . فالانارة واجهة المنازل يتفنن البناء في رسم هذه « النظرات » مؤكداً إياها بالقرميد أو برسوم من الآجر .

إن البيوت مبنية على عدة مستويات نظراً لوضعها الجبلي . ومعنى هذا أن البيوت ليست حتماً بعضها فوق بعض لكنها مشيدة على أنصاف طوابق متداخلة أو بعبارة أخرى تكون أرض البيت الأولى على ارتفاع متر واحد من أرض البيت الثانية . وهذه طريقة لا يتردد العمران



ساحة ، اثنتان ، وعن قريب تنتصب قرية طريق سور الغزلان .



قرية في بلاد القبائل

الأوربي الحديث في إتباعها حيث يمكن لشخصين يسكنان حجرتين مختلفتين أن يتبادلا أطراف الحديث .

وداخل البيوت تطل الجدران بدهن ملس وهذا يدل على أن عدم دهن الجدران من واجهتها الخارجية يعود لأسباب اقتصادية لا غير .

وأهم أثاث يتمثل في الصندوق الكبير الذي يصنعه الحرفيون المتجولون للعائلات التي تكفل لهم الأكل والمسكن حتى يتم صنع الصندوق فيتلقون بعد ذلك أجرهم . ويبلغ الصندوق طول الانسان . وتوضع فيه مجوهرات العائلة والأمتعة وحتى الحبوب في بعض الأحيان . وكثيراً ما



↑ وادي الصمام .

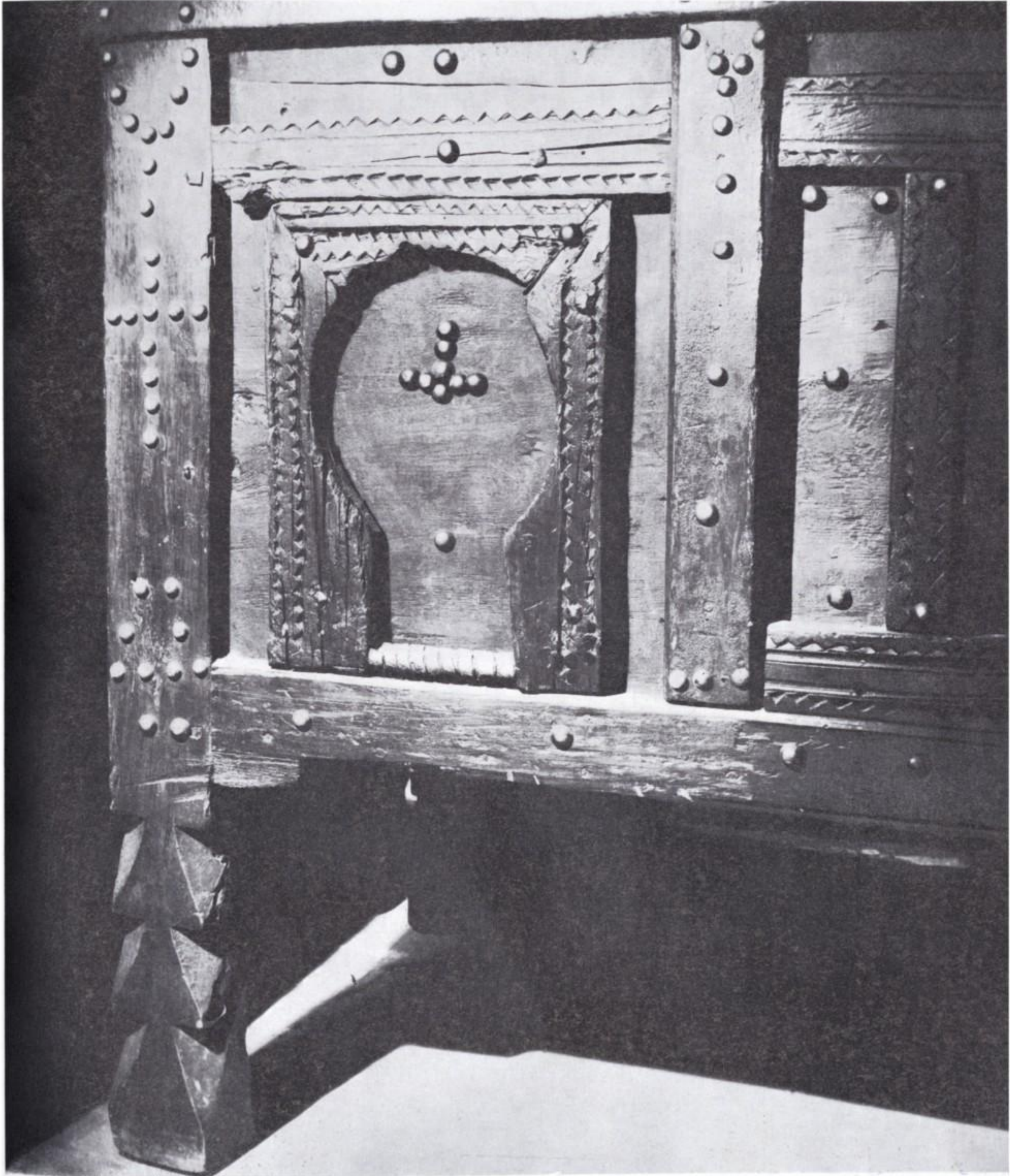


يتخذ رب العائلة هذا الصندوق سريراً للسهر على أملاكه . أما الأثاث الآخر فهو يتكون من البناء مثل المشكاه والرفوف المبنية وخاصة الأواني الخزفية التي توضع على المقاعد وعلى مخازن الحبوب المرتفعة التي تلتحم مع الجدار الذي شيدت عليه وهي مزودة برسوم هندسية من جميع الجهات مثل الصناديق الخشبية .

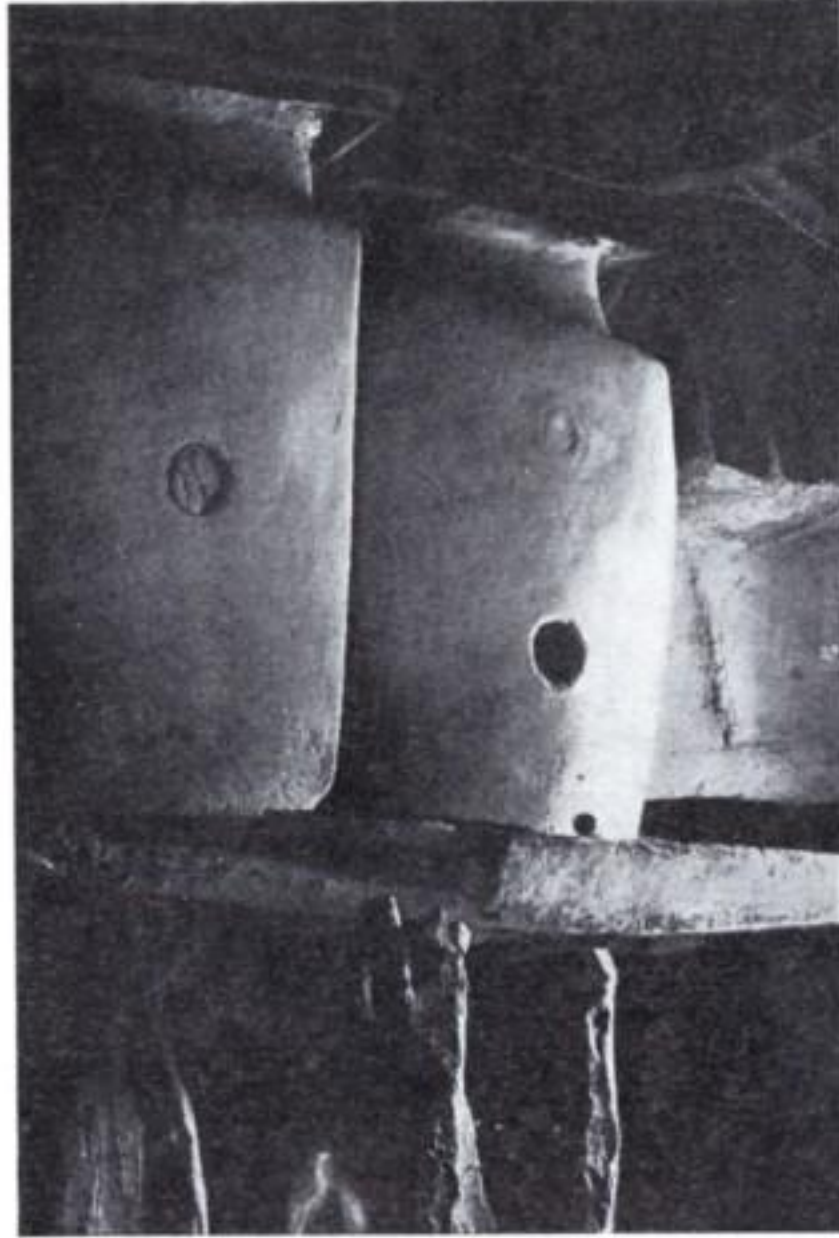
إن الأواني الخزفية القبائلية تستحق دراسة على حدة . فان كان لها طابعها الخاص فهي متنوعة تنوعاً كبيراً . وعند ما لا تستعمل هذه الأواني توضع على رفوف عالية فيصبح مظهرها مثل مظهر واجهة الدكاكين العصرية .

ولحماية الحيوانات من رداءة الطقس تلجأ العائلة إلى إسكانها معها ولا يؤثر هذا مطلقاً على

الديار القبائلية كثيراً ما تبنى بالأحجار المجففة وهو ما يتطلب من البناء نوعاً من الدقة والقوة .



جزء من صندوق تقليدي .



مخزن للحبوب بالتراب الجاف .

نظافة المنازل حيث يخصص للحيوانات القسم الأسفل من الدار وهي مساحة منحدره بها بالوعة حتى يسهل تطهيرها .

وبين هذه الحفرة والقاعة لا يوجد منفذ آخر غير حاجز مثقوب يساعد على الحراسة من جهة وعلى توزيع القشور للحيوانات من جهة أخرى فيسوي بذلك مشكل القاذورات المنزلية . وهذا الحاجز المثقوب يطلى بدهن ملس حتى يسهل غسله .

إن ترتيب البيوت في بلاد القبائل اختصاص من اختصاصات المرأة . فهي التي تصنع الآثاث الخشبية المختلفة لذا نرى الترتيب الداخلي للحجرات في غاية من الجمال والتزود المتجددة . وهناك عامل آخر لا نراه في الجهات الجزائرية الأخرى عامل من اختصاص المرأة أيضاً ألا وهو زخرفة الجدران التي تتمثل في أشكال هندسية حديدية اللون سوداء يعود أصلها إلى أقدم العصور وهي أشكال ناطقة معبرة . ومعلوم أن اللغة القبائلية ليست لغة مكتوبة . وهذه الرسوم التي

في القبائل ، تبدأ الهندسة المعمارية مع الطبيعة نفسها .



أثاث من الأحجار غير المكوية : مخازن للحبوب .



داخل الدار : قفص حمام .

زينت بها الجدران هي رسوم وصفية تعبر عن معاني لا يدرك مغزاها سوى النساء وهن لا يبحن سرها .

وإذا كان مظهر البيوت الخارجي مستقيماً صارماً لا تعلوه سوى بعض الفتحات من القرميد والآجر فان داخل البيوت عبارة عن تحفة جديرة بالهام الاخصائيين . ولقد قال الكوييزي :

« أذهب إلى حيث يمارس الرجال أعمالاً يتقوتون منها وحيث يتخذون المبادرات الرامية إلى التخفيف من آلامهم . وهم يفعلون كل ما يجب فعله للحصول دون تكاليف على أفراح الحياة الاجتماعية : الحرف ، العائلة والحياة الجماعية وبوصفي مهندس ومعماري فأنا على يقين من أنني سأتعلم حرفتي لدى الرجل أو الرجال » .

بقي علينا أن نذكر الآن الأماكن الموجودة في جهات معينة والتي تمثل إما شخصية معمارية



منظر يكورن .



يكورن

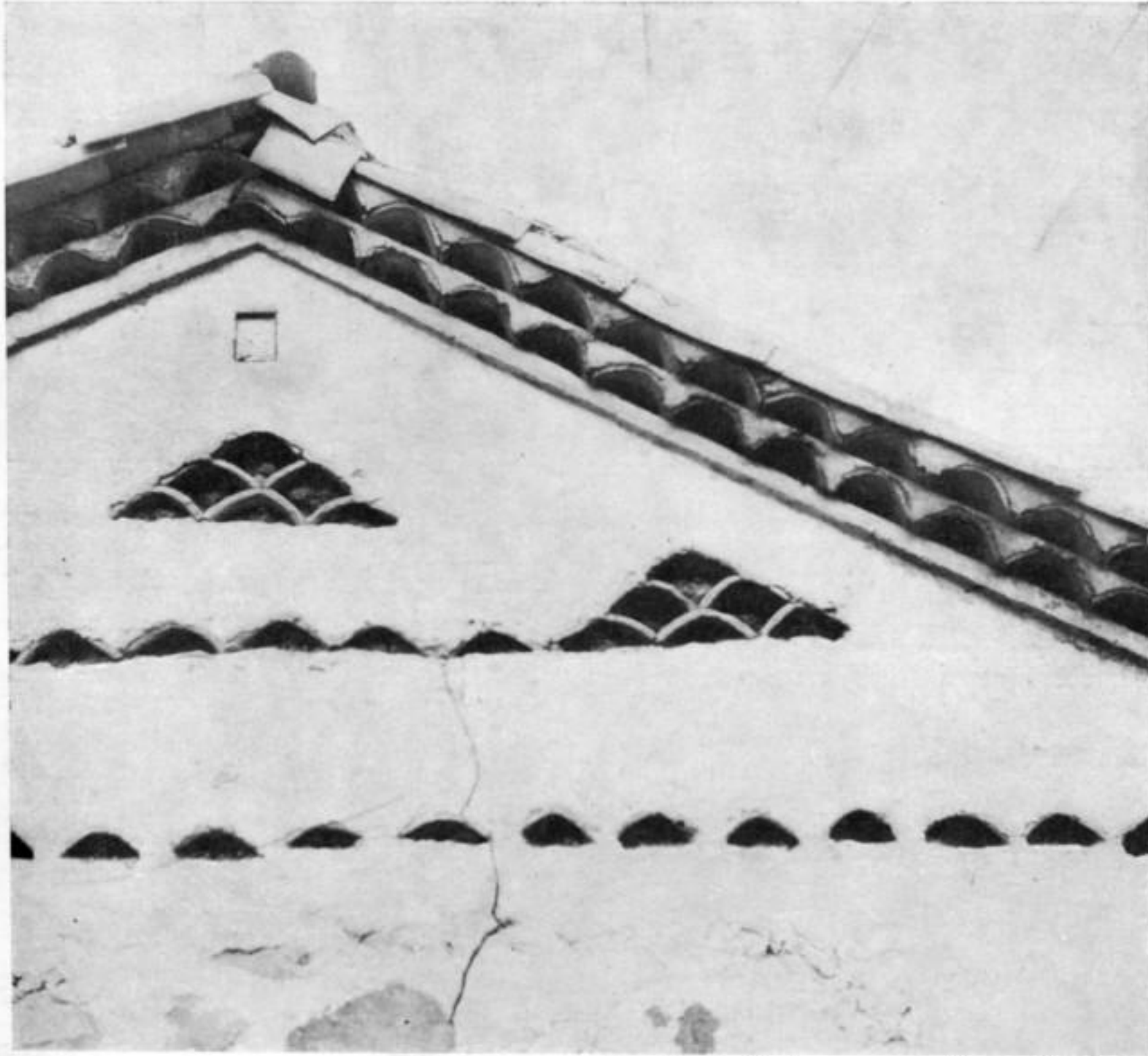


الهندسة المعمارية في كل شيء (كوربوزيه) .
فخار قبائلي - متحف باردو .



باب قبائلي قديم ، المتحف الوطني الجزائري

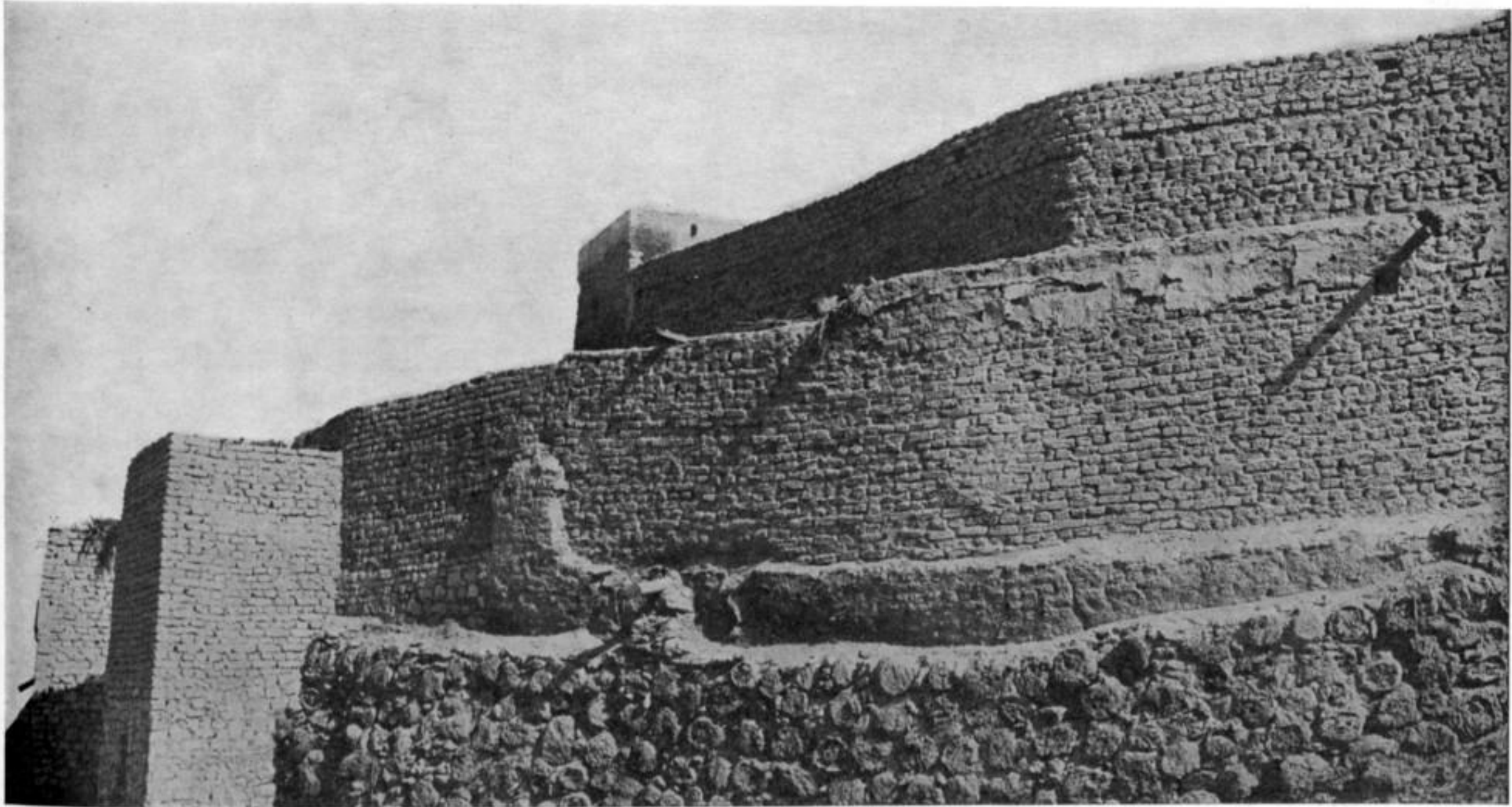
قوية وإما مزيجاً من التأثيرات المفيدة . ففي الجنوب كما أسلفنا تعتبر مدينة « تميمون » نموذجاً حقيقياً لل عمران الصحراوي الذي يمتد من الساورة إلى جنات . ففي « تغيت » - بالساورة - مثلاً نجد السقوف ذات الشكل النصف الأسطواني كما هو الحال في « تميمون » . ونجد في جانب الباب المقوس الذي يبنى على جدارين صغيرين يكونان مضيقاً عند المدخل هذا النوع من الأبواب لا يعثر عليه لا في الساورة ولا في سوف ولا في المزاب . وبالقرب من « تقرت » تقوم قرية « تماسين » المحصنة على طبقة أفقية من أعجاز النخيل التي تكون مرتفعاً اصطناعياً في صحراء منبسطة . وفي منطقة الزيبان بالقرب من مدينة بسكرة تبنى جدران الحدائق هي الأخرى على أعجاز النخيل . وتمتاز منطقة الزيبان بأصالة لا



استعمال القرميد المستدير ، زخرفة وكوات للتهوية

بد من تأكيدها : وهي أن أضرحة المشايخ التي تشبه أضرحة المزاب من حيث جودة قبائها الشاعرية ذات النوافذ الصغيرة لا تخضع لقاعدة هندسية بل يترك فيها العنان للشاعرية والتفنن . ومنطقة الزيبان مبنية بالحجارة المرتبة ترتيباً هائلاً . والممرات المغطاة في القرية واسعة إلى درجة استعمال الركائز لشد السقوف . ودائماً في ضواحي بسكرة نلاحظ خلافاً لما هو موجود في مدينة « طولقا » إن القرى التي تحيط بمسجد سيدي عقبة القديم مبنية بالطوب تشبه بذلك قرى جنوب الأوراس القريبة منها . وهذه القرى تكاد لا ترى ذلك أنها محاطة بالنخيل وليست موجودة على مرتفع طبيعي .

وشمالاً يمكن أن نذكر المزارع المنخفضة التي شيدت باللبنات بضواحي مسيلة . (وهذه المزارع كلها مشيدة حول فناء) وهي موجودة هنا وهناك في هذه السهول المجردة التي تمتد حتى جبال الحضنة .



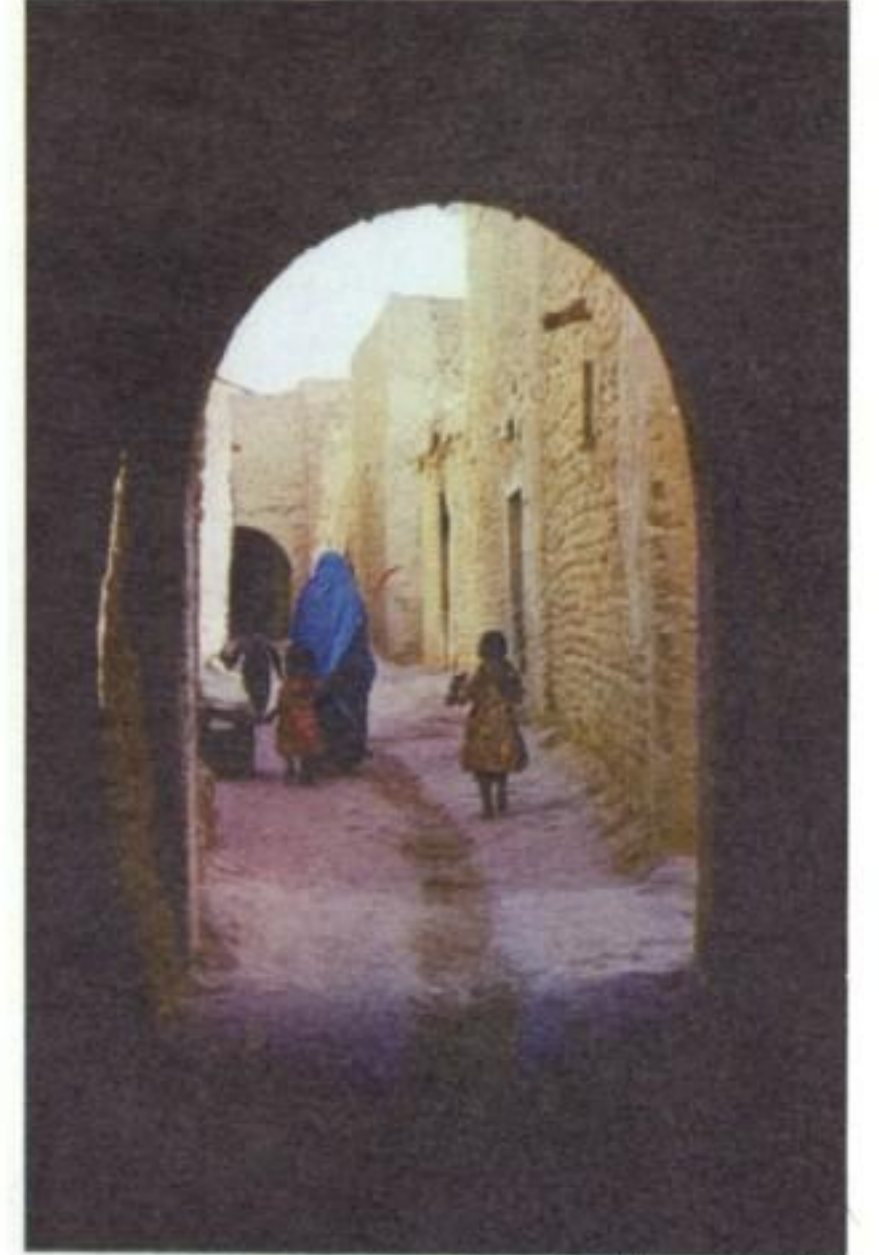
تماسين ، قرية محصنة ، مبنية على قطع من النخيل .

وتمتاز جهة بني منصور على طريق سطيف بحجم حجارة جدرانها وترتيبها الجميل . وفي بلاد القبائل الصغرى بين جيجل وفج مزالة نجد مساجد ريفية صغيرة تمتاز بجمالها وصومعاتها المستديرة التي تعلو قببات متوجة بشرفات حديدية وفي المنطقة الوهرانية تتميز بالأضرحة المتعددة ذات القباب المتنوعة وهي تحتاج لوحدها دراسة خاصة وبالقرب من قسنطينة و « تقزدت » توجد مدينة ملية التي بنيت على أنقاض مدينة رومانية .

وأخيراً وفي ضواحي تلمسان نجد علاوة على مساجد عهد عبد الواد وبني مرين هندسة معمارية



سقف من القشور والسفط في تاغيت
نجده في كامل الساورة وأيضاً في جنات .



تماسين ، ظل وشمس .



تماسين ، المسجد .



اشكال مقابر الزيان ، في روعة مقابر المنزاب .

خاصة تتميز بها السطوح وهو فن نثر عليه في بلدان بحر الأبيض المتوسط . وهذا العمران الذي يذكر بالجزر اليونانية يحتفظ بالأسلوب الذي يجعل البيوت تبنى حول الفناء وهذه قاعدة جزائرية بحثة . ويمتد هذا العمران التلمساني إلى مدن تليتا والخميس وتفسرة (وتمتاز هذه المدينة الأخيرة بمسجد يعد تحفة من حيث بساطته وجماله) . والطقس في هذه القرى بارد والثلوج فيها تتهاطل في فصل الشتاء . وهكذا نرى المدخنتات تشهد على ضرورة التسخين وهي ذات حجم كبير وينسب على فوهتها سقف صغير .

القرية كلها في شكل واحد .
الشمس ، الأرياح ، والأمطار النادرة .
جدران مختلفة ، واجهات موحدة ذات
زوايا رائعة .

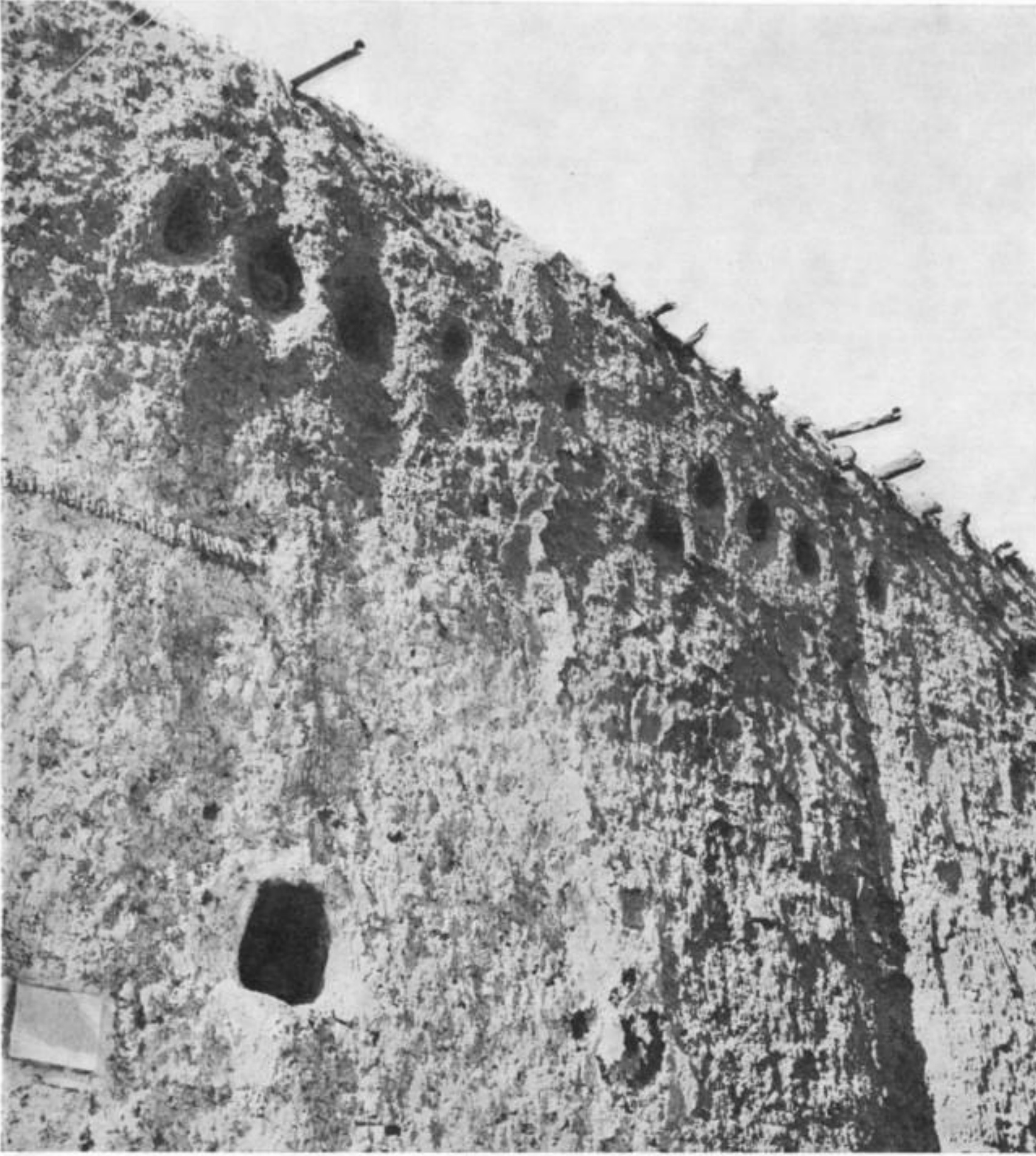
نظراً لضعفها فهي لا تكشف عن أي
تزويق ، بل هي تنزوي في هدوء مسرحي
محتضنة كل أسرارها وحباسها .



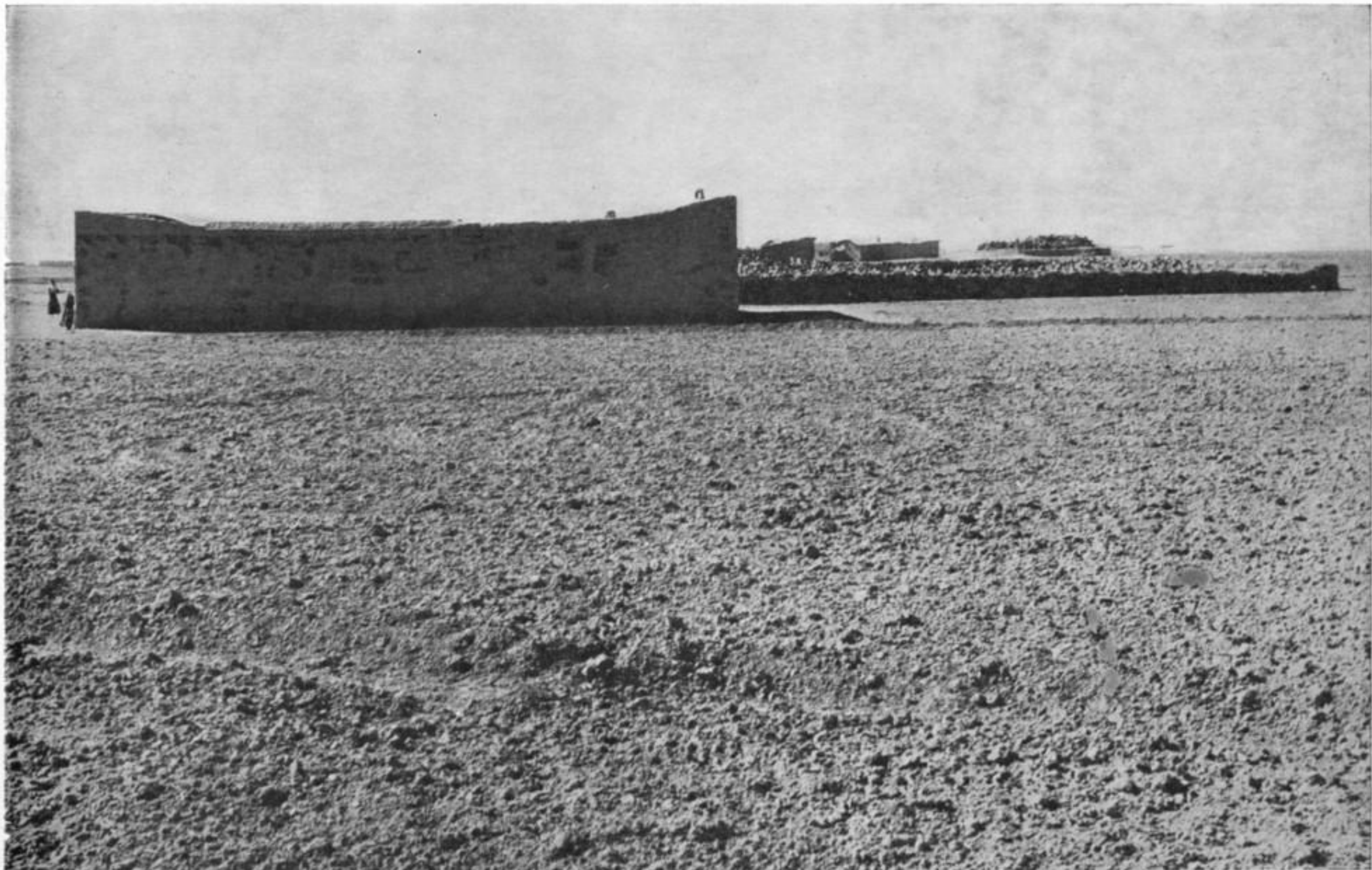
سيدي عقبة



ولي في الزيبان .

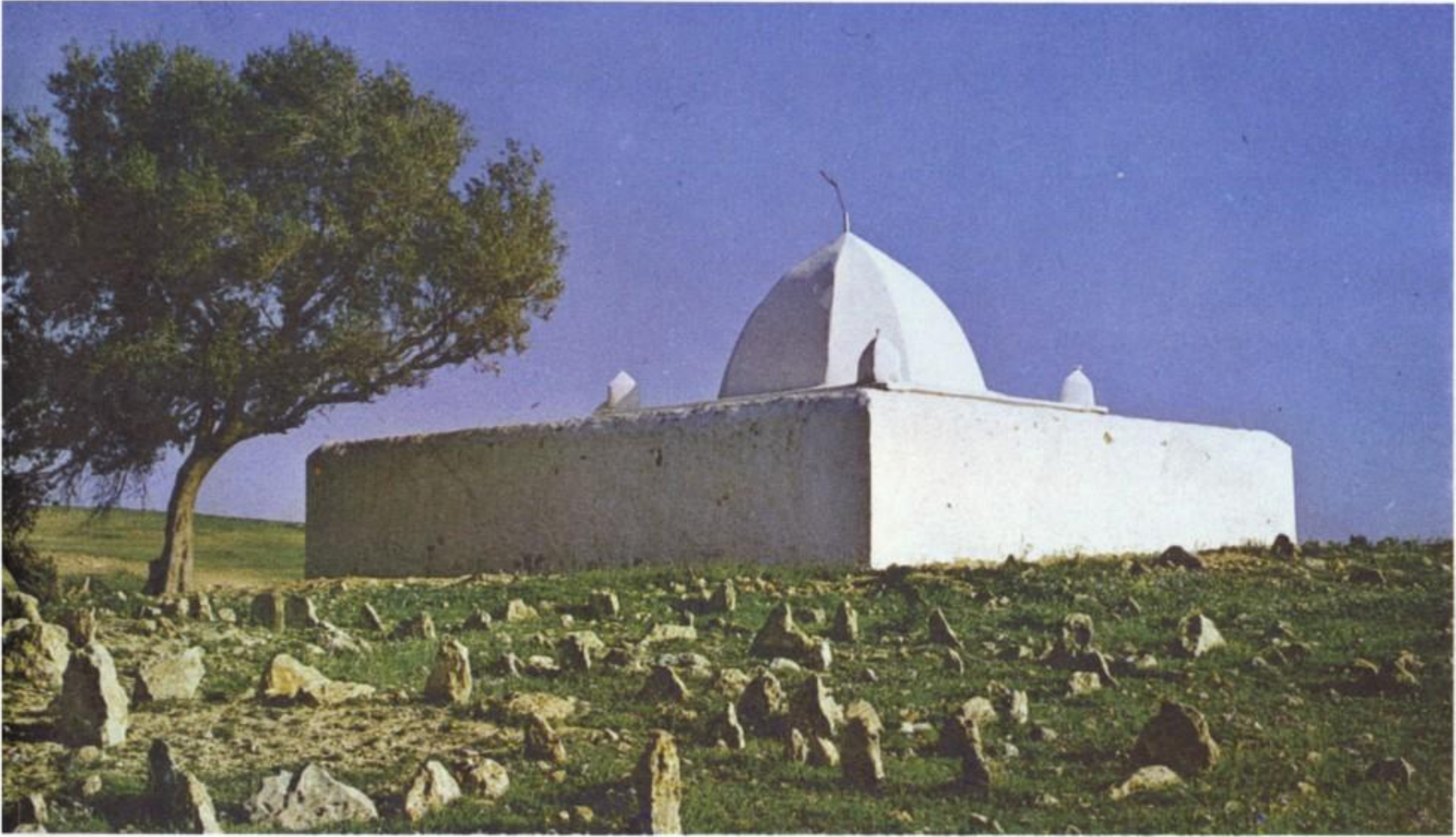


سيدي عقبة - القرية . ←
الانجراف جعل من هذا الجدار حالته هذه وأعطاه
هذا المظهر البربري . الجدران الطوبوية تتقدم
في وحدة لونها وأشكالها الجميلة .



مزارع في المسيلة .





ولي حوالي مدينة معسكر .



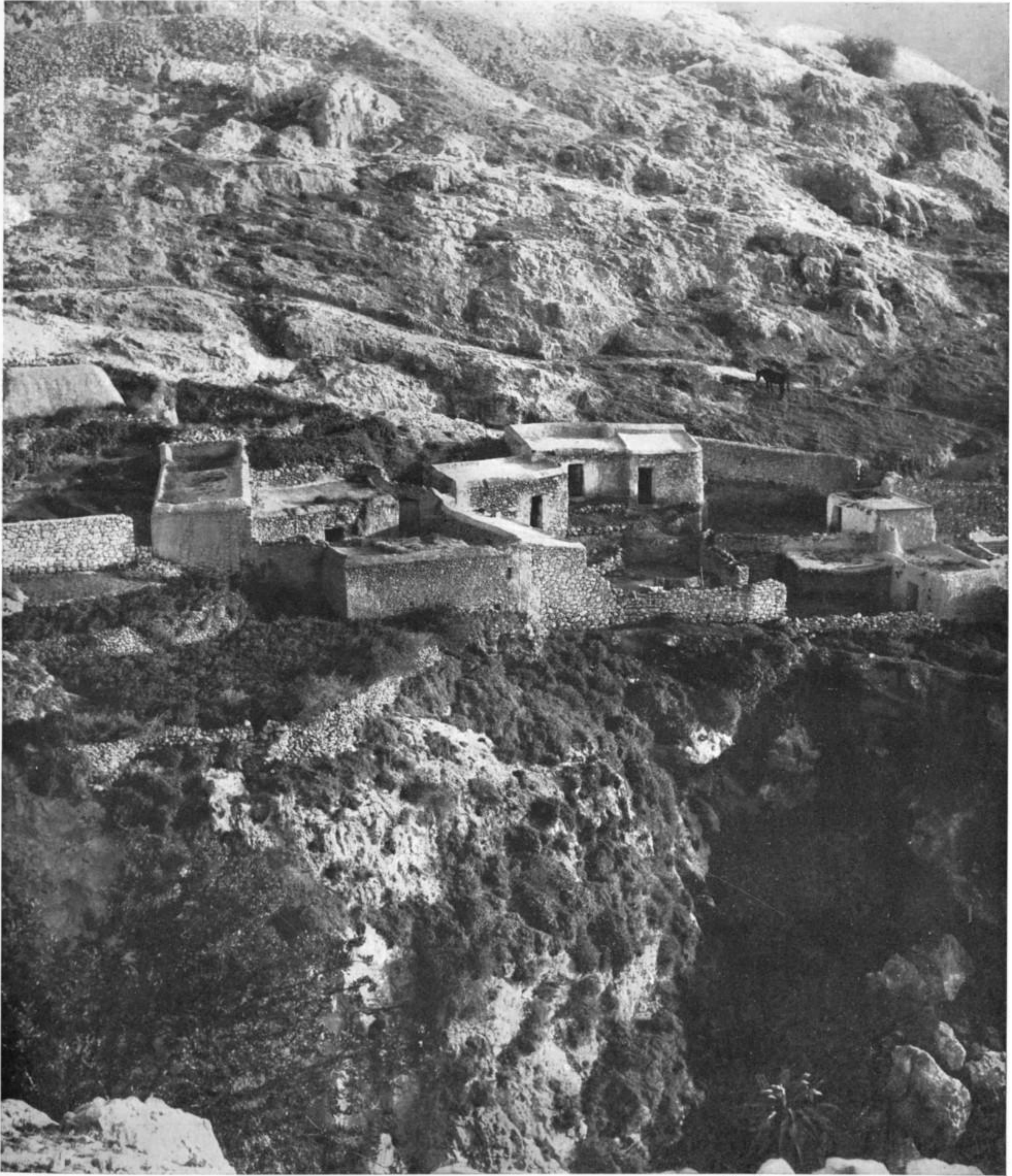
مسجد صغير في القبائل الصغرى .



جامع تفسارة ، يرجع إلى عهد عبد الواحد . ←
متواضع ، مبني على الطريقة القديمة ؛ ثلاث
أروقة بمزاجها ، سطح صغير ذو أربع صفرات
فوق المرحب .

في تفسارة ، سطوح كما نجدها حوالي تلمسان .
مرحب ساحة الجامع ، مصور على الجدار . لم
ينقل بالنقوش .
إن مقابلة الاله تسمو عن كل زخرفة . ↓

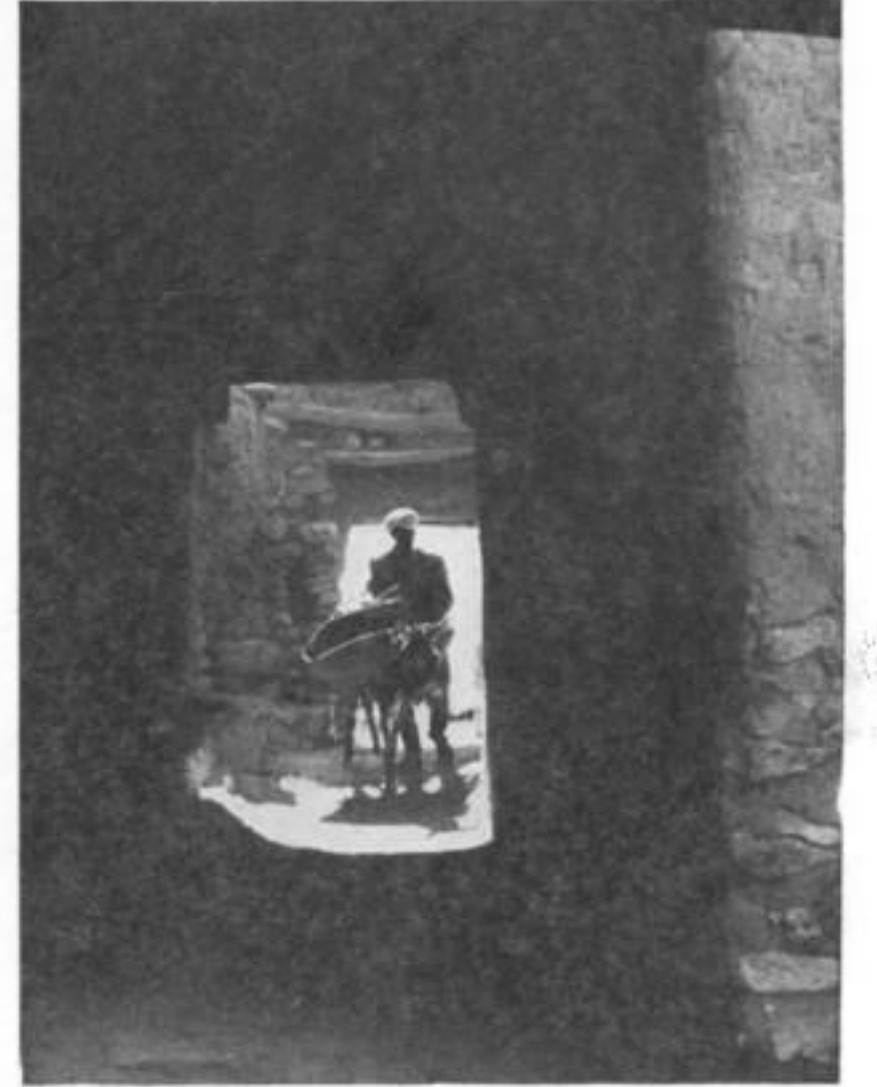




ديار صغيرة مسطحة غير بعيد عن تلمسان .



في تفسارة ، سطوح كما نجدها حوالي تلمسان



ثاغيت . شارع مغطى .

إن مدينة تنس القديمة التي لم نشر إليها في القسم التاريخي حيث لم يذكرها التاريخ إلا قليلاً تمثل هذه المدينة آثاراً من القرون الوسطى ومسجداً شيد في القرن الثالث عشر يمتاز داخله بخاصيات تشبه خاصيات مسجد القيروان الأعظم . حيث نجد نفس التيجان الرومانيه من على الكوات ذات المقاطع المربعة والارتفاعات المختلفة وذلك لتدارك تفاوت التيجان . وهكذا تكون الأعمدة في طول واحد . والأقواس التي ترسم في الجدران لها تقاطيع رشيقة من حيث بساطتها وأناقتهما .



قلعة بني راشد .



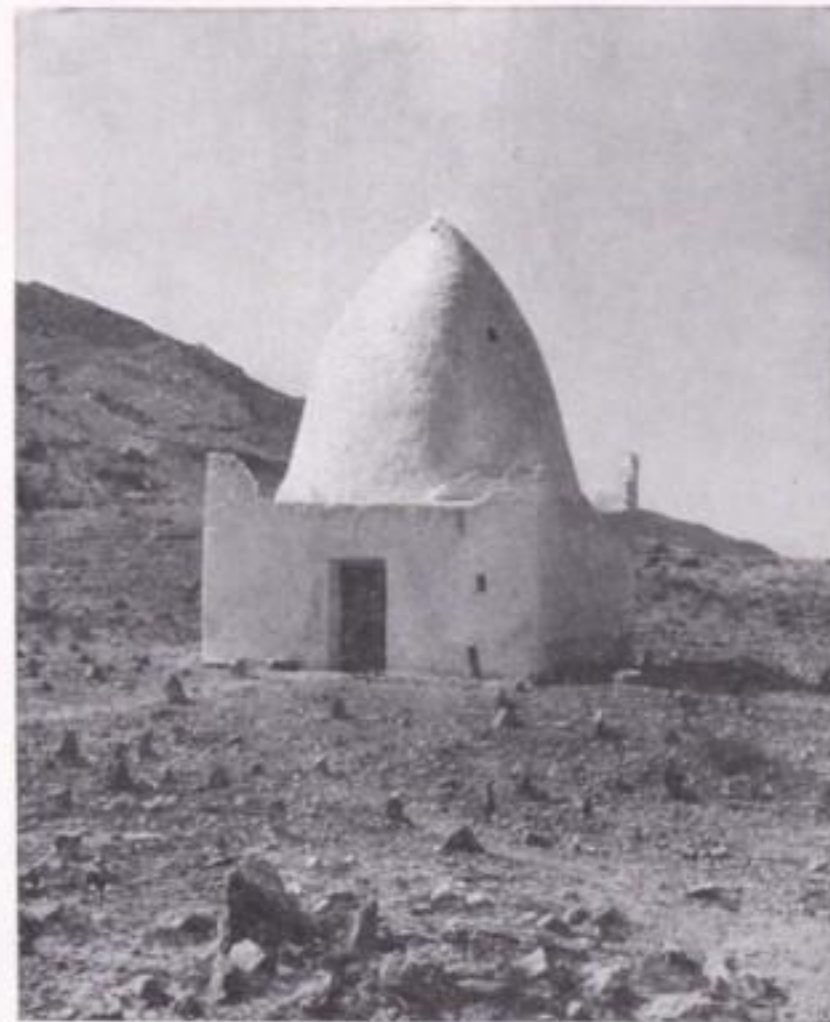
قبب ، مشربية . جدار باب مسكن جميل في الزيبان .

وفي ضواحي معسكر تقوم قلعة بني راشد في منطقة حجرية مجردة ويقال أنها كانت إحدى ملاجئ ابن خلدون العظيم .

إن الفن المعماري الجزائري وإن اختلفت مظاهره واحد . وهذه الوحدة هي وحدة الشعب التي اتصفت عبر التاريخ بميلها إلى الصرامة والصفاء اللذين لا بد أن يميل إليهما الفن المعماري الحديث حتى لا يكون فناً عابراً يزول مع الأيام . إن « لوكوبيزي » المهندس والمعماري الشهير الذي وجهت إليه الانتقادات المختلفة واتهم بكونه تجاوزته الأحداث قد اهتم بالجزائر إهتماماً خاصاً . فلقد تغنى بها في أشعاره وهو نعم الشاعر



قد تكون جرة اتخذت زينة لهذا الجناح لاحدى
المساجد .



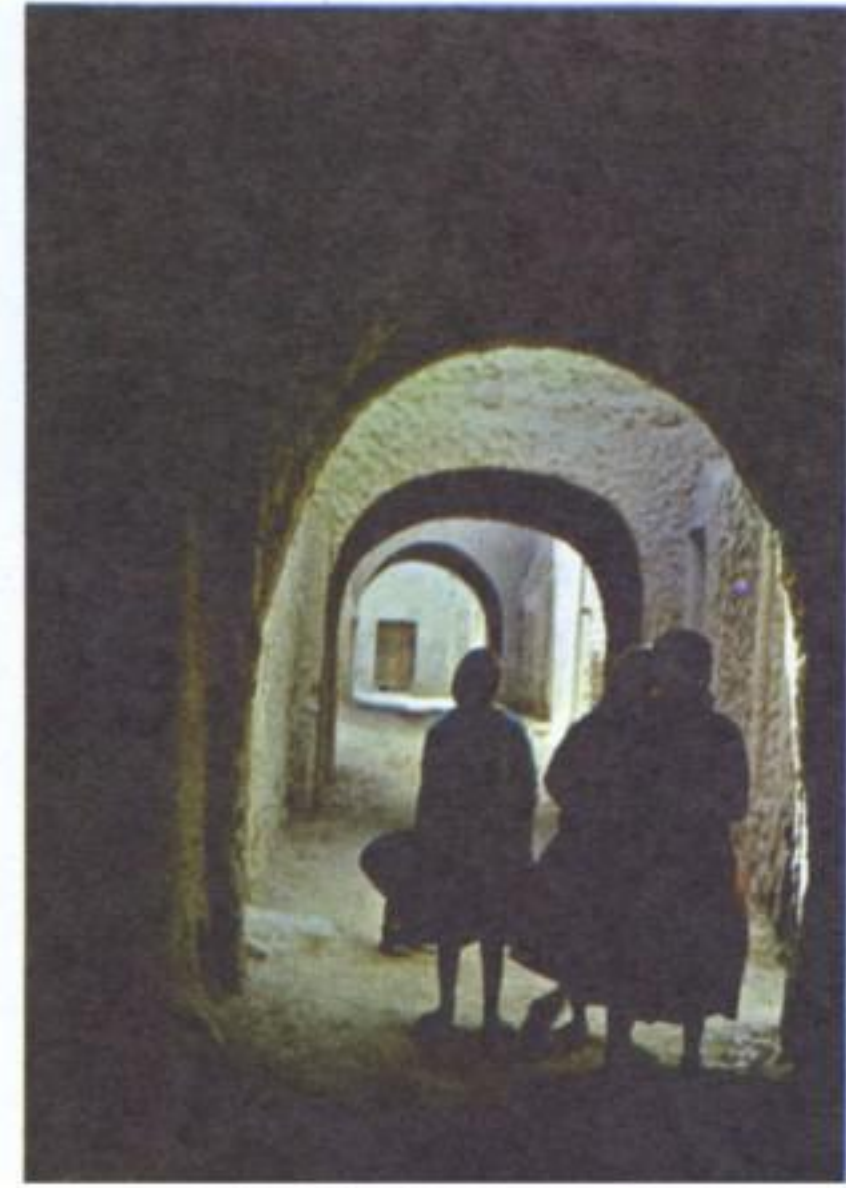
ولي في بوسعادة .



داخل جامع ، قبر قديم في الزيبان .



↑ حوالي مدينة معسكر .



تاملات ، قرب توقرت .



ولي في سيدي خالد (الزيبان) .

وصورها في رسومه وهو الرسام المبدع ودرسها في فلسفته وهو المفكر المتبصر . إن الجيل الناشئ للمهندسين المعماريين الجزائريين لمدرک لهذه الخصلة المتمثلة في أصالة الأساليب التي حنكها الدهر والتي تسفر عن عمران يناسب الإنسان والوطن .



سور من قطع النخيل .

وبفضل الأدوات الجديدة أصبح التقدم يفتح أبواب الراحة والمرافق فلا بد إذاً من البحث عن التوازن . وفي مجال الهندسة المعمارية يتيه العالم أجمع في أبحاث غالباً ما تكون فاشلة لأنها لا تعتمد على حقيقة سليمة . فهي أبحاث تجريدية تنتهي إلى نتائج مجردة من الصبغة الإنسانية إن المعماريين الجزائريين الذين اكتسبوا الفنيات الحديثة يعرفون أن العبرة هنا ولا بد من دراستها والتعمق فيها وتأبيدها وأن هذا العمران ليس معناه علم طبقات الأرض لكنه عمران عصري حديث .



جدار باب حديقة في الزيبان .

هذه السلسلة تنشرها وزارة الأخبار
النصوص : وزارة الأخبار
صور وتصميم : وزارة الأخبار
التوزيع : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
مطبعة التاميرا - روتوبريس ش.م.
مدريد - اسبانيا
جوان ١٩٧٠